محاولة دفع دلالة التوكيد عن (إنَّ) : (إنَّ) أداة أخبار، وجواب وربط، واتكاء مقولي

د. عمر يوسف عكاشة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٩/٥/٧ تاريخ القبول: ٢٠١٠/٢/٢١

ملخص

يَنْهَدُ الباحثُ الحاليُّ، بالمُستَطاعِ مِنَ الأَدِلَّةِ، إلى مُحاولةِ دَفْعِ دِلالَةِ التَّوْكيدِ عَن الأداةِ (إنَّ). وتُعَدُّ (إنَّ) بِحَقّ، بِدِلالَتِها التَّقْليديَّةِ الشّائعَةِ عَلى التَّوْكيدِ، مِنْ أَكْثَرِ الأَدَواتِ لُصوقاً بالأَذْهانِ في اللغَةِ العَرَبِيَّة، فَلا يَكادُ يُشَكُّ في أَمْرِ دِلالَتِها عَلى التَّوْكيد، بَلْ أُضْحَتْ لِفَرْطِ شُيوعِها مُسَلَّمَةً مِنْ جُمْلَةِ مُسَلَّماتِ التَّفْكيرِ النَّحْويِّ العَرَبِيِّ القَديم.

ولَقَدْ كانَ مُنْطَلَقُ الباحِثِ مُبْتَدَأَ الأَمْرِ مِنَ الجانِبِ التَّعْليميّ العَمَلِيّ، إذ انْكَشَفَ لَهُ مِراراً بِأَنَّ الاكْتِفاءَ بِالقَوْلِ: إنَّ "(إنَّ) للتَّوْكيدِ" لا يُسْعِفُ مُتَعَلِّمي العَرَبِيَّةِ، مِنَ النّاطِقينَ بِها وَالنّاطِقينَ بِغَيْرِها، عَلى تَوْظيفِ هذِهِ الأَداةِ تَوْظيفاً اسْتِعْمالِيّاً مُصَوَّباً، فَضْلاً عَنْ تَبَيُّنِ السِّياقاتِ التي تُحْتَضَنُ فيها هذِهِ الأَداة. وَقَدْ انْقَسَمَ البَحْثُ -بَعْدَ الاسْتِهْلال- إلى قِسْمَيْن: أَمّا الأَوَّلُ فَخَصَّصَهُ الباحِثُ لِمَلاحِظَ وَمَواطِنَ يَحْسَبُ أَنَّها تَرْقى لأَنْ تَكونَ مُضَعِّفاتٍ لِلْقَوْلِ بِتَوْكيديَّةِ (إنَّ).

وَيَجْهَدُ الباحِثُ -مِنْ بَعْدُ- في التَّأْسيسِ لِوَظائفَ أُخْرى لِـ(إنَّ)، فَيَرى أَنَّها تَقومُ تَرْكيبِيّاً بِوَظيفَةِ إِبْرازِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ حَيْثُما اسْتَوْطَنَتْ. وَقَدْ تَقومُ بِوَصْلِ الأَسانيدِ إِنْ هِيَ وَقَعَتْ مَوْقِعاً بَيْنِيّاً، كَمَجيئِها في سِياقِ القَوْل، وَسِياقِ التَّعْبيرِ عَنِ التَّعْليل. وَأَمّا مِنَ النّاحِيَةِ الدّلالِيَّةِ فَتَأْتي -أَيْنَما حَلَّتْ- لِلإِخْبار، أَوِ الرَّدّ، أَوْ تَقْديمِ الرَّأْي، أَوْ نَقْلِ المَعْلومَةِ الجَديدَة، أَوْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ المَوْضوعات، أَوْ لِلتَّعْليلِ السَّبَبِيّ. وَتُرَدُّ الدّلالاتُ كُلُّها سِوى الإِخْبارِ إِلى دِلالَةِ الإِخْبارِ نَفْسِها، لِتَغْدُوَ الدّلالَةَ الأَعَمَّ التي يُحاوِلُ البَحْثُ إِثْباتَها لِـ(إنَّ).

(الكَلِمات الدّالَّة: النَّواسخ، إنَّ، إنَّ وأخواتها، التَّوْكيد، الإِخْبار، ربط).

* مركز اللغات، جامعة اليرموك.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

Abstract

Trying to Refute the Emphatic Indication of >Inna

Inna: an Article for Statement, Answer, Connection and Reporting Speech

The present article is an attempt to provide as many pieces of evidence as possible to refute the emphatic indication of >Inna. As known, >Inna is thought to be one of the most used articles when using emphatic form in language and no one argues its emphatic indication. Furthermore, the emphatic use of >Inna has become one of the givens in the old grammatical thought.

The basis of the current article emerged from the educational and practical uses of the article. It was obvious that just using >Inna to indicate emphatic is not sufficient for many students, either for students where Arabic is their mother language or for students where Arabic is a second language, and many of them use this article as corrective article, noting at the same time the different contexts that contain the use of it. After the preface, the article was divided into tow sections: the first was dedicated for investigating evidences that can be said to refute the emphatic nature of >Inna. The second section was dedicated to give evidences for other uses for >Inna. The current scholar have indicated that >Inna is used mainly for identifying the subject (the predicate). >Inna may be used to connect the different predicates if it comes between them. As for the indicative aspect of >Inna, it comes for statement, answering a question, giving opinion, giving new information, separating two ideas or for causal explanations. All these indications are refuted, thus proving the hypothesis of the article.

(keywords: >inna, >inna and its sisters, emphasizing, statement, connection).

اِستِهْلال[١]

كَثيراً ما يُهَيَّأُ لي بِأَنَّ الأَدَواتِ التي وَرِثْناها مُتَحَدِّرَةً إِلَيْنا عَبْرَ كُتُبِ السّادَةِ العُلَماء، عُلَماءِ النَّحْوِ العَرَبِيِّ القُدامى، تَنْقَسِمُ إِلى قِسْمَيْنِ، وَذلِكَ اسْتِناداً إِلى شُعورِنا أَوْ إِدْراكِنا بِمعانيها التي نَصّوا عَلَيْها في كُتُبِهِمْ. فَثَمَّةَ أَدَواتٌ أَحْسَبُ أَنَّ أَحَداً مِنَ النّاطِقِينَ بِالعَرَبِيَّةِ في زَمانِنا لا يُماري في صِحَّةِ ما نَسَبَهُ العُلَماءُ إِلَيْها مِنْ مَعانٍ، وَكَأَنَّ لِهذِهِ الأَدَواتِ امْتِداداً في وَعْيِنا اللغَوِيِّ المُعاصِرِ، أَو اسْتِعْمالِنا اللغَوِيِّ الحاضِرِ، نَسْتَشْعِرُ مَعَهُ بِقُوَّةٍ صَوابَ المَعاني المَنْسوبَةِ إِلَيْها في كُتُبِ النَّحْوِ، فَلا يَرِدُ عَلى خاطِرِ أَحَدِنا التَّشْكيكُ بِتِلْكَ الدّلالاتِ المَنْسوبَةِ إِلى تِلْكَ الأَدَوات.

بَلْ إِنَّني لأَظُنُّ أَنَّ هذِهِ الطّائِفَةَ مِنَ الأَدَواتِ هِيَ في دَرَجَةٍ ما يُكْتَسَبُ اكْتِساباً في عَرَبِيَّتِنا المُعاصِرَةِ، إِذْ ما نَزالُ نَسْتَخْدِمُها عَلى نَحْوٍ فيهِ وِفاقٌ تامٌّ مَعَ الماثِلِ في كُتُبِ النَّحْوِ، حَتّى لَوْ لَمْ يُرْجَعْ إِلى تِلْكَ الكُتُب. فَنَحْنُ لا نَشُكُّ – مَثَلاً– في صَوابِ دِلالَةِ (قَدْ) عَلى التَّوَقُّعِ حينَما تَكونُ داخِلَةً عَلى مُضارِعٍ، كَما لا يُمْكِنُ أَحَداً –حَسْبَ ظَنّي– أَنْ يُجادِلَ في إِفادَةِ (كَيْ) التَّعْليلَ، أَوْ دِلالَةِ (لَمْ) عَلى النَّفْيِ في الماضي، أَوْ انْصِرافِ (لَنْ) للنَّفْيِ في المُسْتَقْبَل. كَما أَنَّهُ لَيْسَ في مُكْنَةِ أَحَدٍ –بِالقَدْرِ نَفْسِهِ– أَنْ يُشَكِّكَ في أَنَّ (كَمْ) لِلْعَدَدِ المُبْهَمِ، وأَنَّ (إِنْ) تَأْتي للشَّرْطِ،... وَهكَذا.

وَأَكادُ أَجْزِمُ، بِشَأْنِ طائِفَةِ الأَدَواتِ هذِهِ، بِأَنَّنا كُنّا سَنَتَعَرَّفُ عَلى دِلالاتِها بِسُهولَةٍ حَتّى لَوْ لَمْ يَصِلْنا مِنَ النُّحاةِ شَيْءٌ حَوْلَها. بَيْدَ أَنَّ قِسْماً آخَرَ مِنَ الأَدَواتِ الحالُ مَعَها لَيْسَتْ عَلى هذا النَّحْوِ المَوْصوف، فَإِنَّ دلالاتِها لا نَشْعُرُ بِها في زَمانِنا عَلى نَحْوِ ما نَجِدُهُ في كُتُبِ النُّحاة، بَلْ إِنَّنا –عَلى العَكْسِ– نَسْتَشْعِرُ عالِياً بِأَنَّ أَدَواتِ هذِهِ الطّائِفَةِ الثّانِيَةِ غَيْرُ مُتَفاعِلَةٍ –بِما حُمِّلَتْهُ مِنْ دِلالاتٍ نُصَّ عَلَيْها في الكُتُب– مَعَ حِسِّنا اللغَوِيِّ المُعاصِر، أَوْ وَعْيِنا الحاضِر. أُريدُ لأَقول: إِنَّنا، وَنَحْنُ نَسْتَعْمِلُ بَعْضَ الأَدَواتِ في العَرَبِيَّةِ المُعاصِرَةِ، لا نَسْتَشْعِرُ صَوابَ الدّلالاتِ المَنْسوبَةِ لَها المَنْصوصِ عَلَيْها في كُتُبِ النَّحْوِ، وَمِنْها: (إِنَّ)، وَ(أَنَّ)، وَ(أَنْ)[٢]، وَ(قَدْ).

فَلَوْ لَمْ يَقُلْ لَنا النُّحاةُ إِنَّ (إِنَّ) للتَّوْكيدِ، فَهَلْ كُنّا سَنَتَوَصَّلُ إِلى نَتيجَتِهِم التي اسْتَقَرّوا عَلَيْها بِشَأْنِ دِلالَةِ (إِنَّ) عَلى التَّوْكيد؟ كَيْفَ فَهِموا التَّوْكيدَ مَعَ (إِنَّ)؟ مِنْ أَيْنَ تَأَتّى لَهُمْ فَهْمُ التَّوْكيدِ أَو اسْتِنْباطُهُ مَعَ هذِهِ الأَداةِ حينَما نَقولُ – مَثَلاً–: (إِنَّ أَخي ناجِحٌ)؟ الأَمْرُ مَعَ طائِفَةِ الأَدَواتِ الأُولى المُتَحَدَّثِ عَنْها ماضِياً مُخْتَلِف، فَنَحْنُ ما نَزالُ إِلى اليَوْمِ نَشْعُرُ بِصِحَّةِ دِلالَةِ (قَدْ) عَلى التَّوَقُّعِ –مَثَلاً– في مِثْلِ قَوْلِنا: (قَدْ يَزورُنا عَمّي اليَوْمَ).

غَيْرَ أَنّي لا أَسْتَحِبُّ رَدَّ الأَمْرِ في الطّائِفَةِ الثّانِيَةِ إِلى تَطاوُلِ الزَّمَنِ وَالبُعْدِ عَنْ عُصورِ الفَصاحَةِ الأُولى، لأَنَّ أَكْثَرَ أَدَواتِ هذِهِ الطّائِفَةِ بِبَساطَةٍ –وَأَكْثَرَ أَدَواتِ الطّائِفَةِ الأُولى في الحَقيقَةِ– مازالَتْ سائِرَةً في الاسْتِعْمال، إِنْ في الفُصْحى المَكْتوبَةِ اليَوْمَ وَإِنْ في الفُصْحى المَنْطوقَة. كَما لا أَسْتَطيعُ رَدَّ الأَمْرِ إِلى أَنَّها "فَقَدَتْ قُوَّتَها مَعَ الزَّمَنِ وَكَثْرَةِ الاسْتِعْمال، أَوْ فُقِدَ الإِحْساسُ بِها عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ المُتَحَدِّثين"[٣]، لأَنَّ أَكْثَرَ أَدَواتِ الطّائِفَتَيْنِ –مِنْ جِهَةٍ أُخْرى– مِمّا لا يُسْتَخْدَمُ في اللهجاتِ المَحْكِيَّةِ اليَوْم[٤].

---

(١) يَأْتي هذا البَحْثُ اسْتِكْمالاً لِجُهْدٍ نَثَرَهُ الباحِثُ وَنَشَرَهُ في مَوْطِنٍ سابِقٍ نَفى فيهِ دِلالَةَ التَّوْكيدِ عَنْ (أَنَّ) "أُخْتِ (إِنَّ)". وَيَعْلَمُ اللهُ –وَكَفى بِاللهِ عَليماً، وَكَفى بِاللهِ شَهيدا– أَنَّ العَمَلَ في هذا البَحْثِ هُوَ حَصيلَةُ نَظَرٍ في المَسْأَلَةِ دامَ نَحْواً مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عاماً.

(٢) وَقَدْ تَكَشَّفَ في بَحْثٍ مَنْشورٍ بِأَنَّ العَرَبِيَّةَ اسْتَحْدَثَتِ الأَداةَ (أَنْ) مِن (أَنَّ)، وَطَوَّرَتْ (أَنَّ) مِنْ (إِنَّ). اُنْظُرْ: عُمَر يوسف عُكاشَة، (إِنَّ) وَ(أَنَّ) وَ(أَنْ) وَ(إِنْ): دِراسَةٌ في العَلاقاتِ التَّرْكيبِيَّةِ وَالتَّطَوُّرِ اللغَوِيّ، مَجَلَّة جامِعَةِ أُمِّ القُرى لِعُلومِ الشَّريعَةِ وَاللغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدابِها، المُجَلَّد (١٩)، العَدَد (٤١)، جُمادى الثّانِيَة ١٤٢٨هـ/يونية (حزيران) ٢٠٠٧م، ص٣٣٣ – ٣٨٨.

(٣) فالح بن شبيب العجمي، **جانِبٌ غائِبٌ في دِراساتِ الجُمْلَةِ في النَّحْوِ العَرَبِيّ**: ص٣٠٣.

(٤) مِنَ الواضِحِ أَنَّني، حِيالَ هذِهِ الظّاهِرَةِ اللغَوِيَّةِ الفَريدَةِ، قانِعٌ بِالوَصْفِ لأَنّي لا أَمْلِكُ التَّفْسير.

وَما نَشْعُرُ بِهِ وِجاهَ الأَداةِ (إنَّ)، وَنَرومُ تَرْجيحَهُ في هذا البَحْثِ، مِنْ عَدَمِ دِلالَتِها عَلى التَّوْكيدِ، قَدْ عَرَضَ شَيْءٌ مِنْهُ لِـ"داود عَبْده" –وَإِنْ سَريعاً– قَبْلَ خَمْسٍ وَعِشْرينَ سَنَةً تَقْريباً، وذلكَ في قَوْلِهِ: "وَحَتّى أَداتا التَّوْكيدِ **إنَّ وَقَدْ** تُسْتَعْمَلانِ في مُعْظَمِ الأَحْيانِ كَأَداتَيْ رَبْطٍ لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ. فَلَيْسَ هُناكَ تَوْكيدٌ عَلى الإِطْلاقِ في جُمْلَةٍ مِثْل: **قالَ الرَّجُلُ إنَّه قد فعل كذا**"(١). وَيَبْدو أَنَّ باحِثاً آخَرَ اِقْتَرَبَ –هَوْناً ما– مِنْ هذا، وَذلِكَ عِنْدَما شَعَرَ بِأَنَّ (إنَّ) "تُسْتَخْدَمُ في العَرَبِيَّةِ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ جِدّاً مَعَ الجُمْلَةِ التّالِيَةِ لَها بِشَكْلٍ يُقارِبُ الجُمْلَةَ الإِخْبارِيَّةَ"(٢).

وَسَنَجْعَلُ بَحْثَنا بَعْدَ هذا في قِسْمَيْنِ، خَصَّصْتُ الأَوَّلَ مِنْهُما لِما أَحْسَبُ أَنَّهُ يُشَكِّكُ في صِحَّةِ دَعْوى دِلالَةِ (إنَّ) عَلى التَّوْكيد. لِيَكونَ هذا التَّشْكيكُ مِنْ بَعْدُ أَساساً قَوِيّاً وَمُنْطَلَقاً صُلْباً، نَبْني عَلَيْهِ في قِسْمِ البَحْثِ الثّاني قَوْلَتَنا في وَظيفَةِ (إنَّ) التي تَضطلِعُ بِها في التَّركيب، وَالدَّوْرِ الدّلالِيِّ الذي تَقومُ بِهِ في الجُمْلَةِ العَرَبِيَّة.

أَوَّلاً: تَضْعيف القَوْلِ بِأَنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيد

وَأَيّا يَكُنِ الأَمْرُ، فَإِنَّ ثَمَّةَ اعْتِراضاتٍ كَثيرَةً عَلى الرَّأْيِ الشّائِعِ حَوْلَ دِلالَةِ (إنَّ) عَلى التَّوْكيد. بَعْضُها يُمَثِّلُ أَدِلَّةً وَرَوائِزَ، وَبَعْضُها إِنَّما هُوَ أَسْئِلَةٌ وَتَساؤُلاتٌ، وَلكِنَّها تَنْهَضُ كُلُّها لِتَكونَ بِمَثابَةِ مُضَعِّفاتٍ لِلقَوْلِ بِأَنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيد، نَسوقُها عَلى النَّحْوِ التّالي، وَتَبْلُغُ أَحَدَ عَشَرَ مُضَعِّفاً:

(١) اسْتِشْكال "تَوْكيد" (إنَّ) عَلى أَفْهامِ بَعْضِ الصَّفْوَة:

يَدُلُّ السُّؤالُ المَشْهورُ، الذي وَجَّهَهُ الكِنْدِيُّ إِلى أَبي العَبّاس(٣)، عَلى وَجاهَةِ ابْتِعاثِ مَسْأَلَةِ دِلالَةِ (إنَّ) مِنْ مَكْمَنِها تارَةً أُخْرى، وَضَرورَةِ وَضْعِ الدّلالَةِ المَزْعومَةِ لِـ(إنَّ) –وَهِيَ التَّوْكيد– عَلى المِحَكِّ مَرَّةً أُخْرى. فَقَدْ "رُوِيَ عَنِ ابْنِ الأَنْباريِّ أَنَّهُ قالَ: رَكِبَ الكِنْدِيُّ المُتَفَلْسِفُ إِلى أَبي العَبّاسِ وَقالَ لَهُ: إِنّي لأَجِدُ في كَلامِ العَرَبِ حَشْواً، فَقالَ لَهُ أَبو العَبّاس: في أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَ ذلكَ؟ فَقالَ: أَجِدُ العَرَبَ يَقولونَ: (عَبْدُ اللهِ قائِمٌ)، ثُمَّ يَقولونَ: (إنَّ عَبْدَ اللهِ قائِمٌ)، ثُمَّ يَقولونَ: (إنَّ عَبْدَ اللهِ لَقائِمٌ)، فَالأَلْفاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَالمَعْنى واحِد. فَقالَ أَبو العَبّاس: بَلِ المَعاني مُخْتَلِفَةٌ لاخْتِلافِ الأَلْفاظ. فَقَوْلُهُمْ: (عَبْدُ اللهِ قائِمٌ) إِخْبارٌ عَنْ قِيامِه، وَقَوْلُهُمْ: (إنَّ عَبْدَ اللهِ قائِمٌ) جَوابٌ عَنْ سُؤالِ سائِل، وَقَوْلُهُمْ: (إنَّ عَبْدَ اللهِ لَقائِمٌ) جَوابٌ عَنْ إِنْكارِ مُنْكِرٍ قِيامَه، فَقَدْ تَكَرَّرَتِ الأَلْفاظُ لِتَكَرُّرِ المَعاني"(٤).

وَأوجِزُ مَلْحوظاتي هُهُنا عَلى القِسْمِ الأَوَّلِ(٥) مِنْ هذِهِ الواقِعَةِ بِالآتي:

أ. إنَّ "رُكوبَ" الكِنْدِيِّ إِلى أَبي العَبّاس، رُبَّما فيهِ إِيماءَةٌ إِلى أَنَّهُ سافَرَ بَعيداً، أَوْ قُلْ إِنَّهُ قَدْ يَكونُ قَطَعَ مَسافَةً طَويلَةً لَها هَيْئَةُ السَّفَرِ، لِيَسْأَلَ مَسْأَلَتَهُ التي سَأَل. فَإِذا كانَ الكِنْدِيُّ، وَهُوَ مَنْ هُوَ، لَمْ يَعْرِفْ وَجْهاً لِـ(إنَّ)، أَوْ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ الصَّوابِ في شَأْنِ دِلالَتِها، أَوْ كانَ في نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ التَّوْكيدِ الذي تَدُلُّهُ زَعْماً وَادِّعاء، فَما بالُكَ بِغَيْرِه؟ قالَ

---

(١) داود عبده، **البنية الدّاخليّة للجملة "الفعليّة"** في العربيّة: ص٤٨.

(٢) فالح بن شبيب العجمي، **جانِبٌ غائِبٌ في دِراساتِ الجُمْلَةِ في النَّحْوِ العَرَبِيّ**: ص٣٠٣. وأُرَجِّحُ أَنَّهُ يَعْني بِالجُمْلَةِ الإِخْبارِيَّةِ الجُمْلَةَ الحِياديَّةَ الخالِيَةَ مِنْ أَيِّ تَوْكيد.

(٣) عَلَّقَ "السَّيِّد محمَّد رشيد رِضا" بِالقَوْلِ: "هُوَ إِمّا ثَعْلَب أَو المبرّد، وكانا مُتَعاصِرَيْن وَمُتَّفِقَيْنِ في الكُنْيَة" (الجُرْجانِيّ، **دَلائِلُ الإِعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**، ص٢٤٢، الحاشِيَةُ الثّانِيَة). أَقولُ: نَجِدُ الإِمامَ فَخْرَ الدّينِ الرّازِيَّ يَسْرُدُ الحِكايَةَ نَفْسَها مُقَرِّراً أَنَّهُ المبرّد، حَتّى مِنْ دونِ أَنْ يَذْكُرَ الكُنْيَةَ وَلَوْ مَرَّةً واحِدَة (اُنْظُر: الرّازِيّ، **نِهايَةُ الإِيجازِ في دِرايَةِ الإِعْجاز**، ص١٨٠).

(٤) عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانِيّ، دَلائِلُ الإِعْجازِ في عِلْمِ المَعاني: ص٢٤٢.

(٥) اكْتَفَيْنا –في هذا المَوْطِنِ مِنَ البَحْثِ– بِالتَّعَرُّضِ لِلقِسْمِ الأَوَّلِ مِنَ الحِكايَةِ، وَهُوَ القِسْمُ الذي يُمَثِّلُ سُؤالَ "الكِنْدِيّ"، عَلى أَنْ نَعودَ –لاحِقاً– لِلتَّعْليقِ عَلى القِسْمِ الثّاني مِنَ الحِكايَةِ، وَهُوَ يُمَثِّلُ جَوابَ أَبي العَبّاس.

"الجُرْجانيّ" بَعْدَ إيرادِهِ تِلْكَ الحادِثَة: "وَإذا كانَ الكِنْدِيُّ يَذْهَبُ هذا عليْهِ، حَتّى يَرْكَبَ فيهِ رُكوبَ مُسْتَفْهِمٍ أَوْ مُعْتَرِض، فَما ظَنُّكَ بِالعامَّةِ وَمَنْ هُوَ في عِدادِ العامَّةِ مِمَّنْ لا يَخْطُرُ شبْهُ هذا ببالِه؟"[١].

إنْ أُريدُ إلا الإشارَةَ إلى أنَّ هذِهِ الحادِثَةَ تومِئُ -ولَوْ مِنْ وَجْهٍ ما- إلى استِشْكالِ فَهْمِ بَعْضِ الصَّفْوَةِ لِـ(إنَّ)، وَاستِعْصائِها عَلى أَفْهامِ بَعْضِ النّابِهينَ مِنَ العُلَماءِ قَديماً، مِمّا يُضفي مَشْروعيَّةً كَبيرَةً عَلى إعادَةِ البَحْثِ في المَسْأَلَةِ مَدارِ الحَديث.

ب. أَحْسَبُ أَنَّ أَحَدَنا لا يَشُكُّ بِأَنَّ "الكِنْدِيَّ" كانَ عَلى عِلْمٍ بِالطَّرْحِ الذي أَتى بِهِ النُّحاةُ حَوْلَ دِلالَةِ (إنَّ) عَلى التَّوْكيدِ، فَهُوَ طَرْحٌ لا يَخْفى -في الحَقيقَةِ- عَلى صِغارِ المُتَعَلِّمين، ولَكنَّ مَقولَةَ التَّوْكيدِ -فيما يَبْدو- لَمْ تُوافِقْ هَوىً عِنْدَ "الكِنْدِيِّ"، ولَمْ تَلْقَ صَدىً في نَفْسِهِ، فَتَجاوَزَها. الأَمْرُ الذي حَمَلَهُ عَلى الرُّكوبِ إلى أَبي العَبّاسِ وَسُؤالِه.

(٢) تَقْدير الفَرّاء (إنَّ) جَواباً لِقَسَمٍ مَحْذوف:

وَإنّني لأَظُنُّ أَنَّ تَساؤُلاتِنا هُنا مَشْروعَةٌ جِدّاً، ولَعَلَّها كانَتْ تَدورُ في خَلَدِ أَبي زَكَرِيّا الفَرّاء -يَرْحَمُهُ اللهُ-. فَلَكَأَنَّهُ لَمْ يَرَ في (إنَّ) أَيَّ أَثَرٍ لِلتَّوْكيدِ، فَراحَ يَلْتَمِسُ طِلْبَتَهُ في التَّرْكيبِ مِنْ خارِجِ بِنْيَةِ (إنَّ)، وَمِنْ هُنا وَجَدْناهُ يُقَدِّرُ (إنَّ) جَواباً لِقَسَمٍ مَتْروك استُغْنِيَ بِها عَنْهُ، وَالتَّقْديرُ -عِنْدَهُ-: (وَاللهِ إنَّ زَيْداً عالِمٌ)[٢]. فَإذا كانَتْ (إنَّ) دالَّةً بِنَفْسِها عَلى التَّوْكيدِ عِنْدَهُ، فَما الذي أَلْجَأَهُ إلى أَنْ يُقَدِّرَ (إنَّ) جَواباً لِقَسَمٍ مَتْروك؟ ما حاجَتُنا إلى مِثْلِ هذا التَّقْديرِ؟ أَرى أَنَّ الفَرّاءَ بِهذا يَدْفَعُ دِلالَةَ التَّوْكيدِ عَنْ (إنَّ)، ويُريدُ أَنْ يَرُدَّ ما يَشْعُرُ بِهِ القَوْمُ مِنَ التَّوْكيدِ، لا إلى بِنْيَةِ (إنَّ) نَفْسِها، بَلْ إلى عُنْصُرٍ لُغَويٍّ آخَر، هُوَ القَسَمُ فيما انْتَهى إلَيْهِ.

وَالرَّأْي الذي أَرْتَئيهِ، وَأَبْسُطُ القَوْلَ فيه، هُوَ أَنَّهُ ما صَحَّ أَنْ تَقَعَ (إنَّ) في جَوابِ القَسَمِ إلا لأَنَّ (إنَّ) لَيْسَتْ لِلتَّوْكيد، فَفي القَسَمِ -لا شَكَّ- كِفايَةٌ، بَلْ فيهِ قُوَّةٌ في التَّوْكيدِ مانِعَةٌ مِن استِجْلابِ أَيِّ مُؤَكِّدٍ آخَر. وَيَتَهَيَّأُ لي بِأَنَّ مَنْ يَلْجأُ إلى القَسَمِ بِاللهِ -مَثَلاً- لا يَفْعَلُ ذلكَ إلا لأَنَّ لله -أَوِ المُقْسَمِ بِهِ- مَنْزِلَةً في نَفْسِهِ عَظيمَةً، رُبَّما لا تُدانيها أَيُّ مَنْزِلَةٍ أُخْرى. وَمَنْ كانَتْ هذِهِ صِفَتَهُ، لا يَتَوَسَّلُ بِوَسيلَةٍ أُخْرى مِنْ تَوْكيدٍ - مَزْعومٍ بِـ(إنَّ)- وَنَحْوِهِ، لأَنَّهُ يَتَوَسَّلُ بِالأَدْنى، بَعْدَ أَنْ يَكونَ قَدْ لَجَأَ قَبْلاً إلى الأَجَلِّ وَالأَعْلى.

بِطَريقَةٍ أُخْرى: إنَّ وُقوعَ (إنَّ) في جَوابِ القَسَمِ يَنْهَضُ دَليلاً قَوِيّاً عَلى ضَعْفِ القَوْلِ بِأَنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيد: أَلَيْسَ في ذِكْرِ اللهِ وَالحَلْفِ بِهِ[٣] -عَزَّ اسْمُهُ- غُنْيَةٌ عَنْ أَيِّ مُؤَكِّدٍ آخَر؟ أَلَيْسَ قارّاً في أَفْهامِنا أَنَّ القَسَمَ دَرَجَةٌ أَعْلى، تَفوقُ التَّوْكيدَ وَتَعْلوهُ؟ فَما حاجَةُ النّاطِقِ إلى الانْتِقالِ مِنْ تَوْكيدٍ أَعْلى وَأَقْوى هُوَ القَسَم، إلى تَوْكيدٍ أَدْنى وَأَقَلَّ هُوَ التَّوْكيدُ المَزْعومُ بِـ(إنَّ)؟ باخْتِصار: إنَّ الذي يَقولُ إنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ في (وَاللهِ إنَّ زَيْداً مُسافِرٌ)، كَأَنَّهُ يَقولُ -مِنْ طَرَفٍ ما- بِأَنَّ القَسَمَ بِاللهِ لا يَفي بِالغَرَضِ وَلا يَنْهَضُ بِالمَطْلوبِ في إقْناعِ المُتَلَقّي. ولَكِنْ، مَنْ لا يَقْتَنِعْ بِذِكْرِ اللهِ مُقْسَماً بِهِ، أَفَتَراهُ يَقْتَنِعُ بِما هُوَ دونَ ذلك؟!

وَقَدْ يُقالُ: إنَّ الأَمْرَ لا يَتَعَدّى أَنْ يَكونَ مِنْ بابِ التَّعْديدِ، تَعْديدِ المُؤَكِّداتِ وَتَكْرارِها، وَزِيادَةِ المُؤَثِّراتِ اللغَويَّة لِتَحْقيقِ الغَرَضِ مِنَ الكَلام، وَهُوَ الإقْناع. وَمَعَ أَنَّهُ مِنَ الغَريبِ جِدّاً أَنْ يُؤَكِّدَ التَّوْكيد، بِالتَّكْرارِ وَالتَّعْديد، إلا أَنَّني أَقولُ: مَعاذَ اللهِ مِنْ أَنْ نَقْبَلَ نَحْنُ أَوْ أَنْ يَقْبَلَ هُوَ -جَلَّ شَأْنُهُ- تَعْديداً، أَلا تَرى أَنَّ هذا واقِعٌ في كِتابِ اللهِ

(١) عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانيّ، **دَلائِلُ الإعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**: ص٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) اُنْظُرْ: المَوْزِعيّ، **مَصابيحُ المَعاني في حُروفِ المَعاني**: ١٦١.

(٣) أَو الحَلْفِ بِكُلِّ عَزيزٍ أَوْ ذي شَأْنٍ عَظيمٍ عِنْدَ أَيٍّ مِنَ المُتَكَلِّمِ أَو المُتَلَقّي، أَوْ عِنْدَ كِلَيْهِما.

العَزيز[1]، وَاللهُ لا يَقْبَلُ أَنْ يَكونَ – في أيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوال– شَريكاً. إنَّني – بِبَساطَةٍ وَصَراحَةٍ – أَرى بِأَنَّهُ ما جازَ وُقوعُ الجُمْلَةِ المُصَدَّرَةِ بِـ(إنَّ) جَواباً لِلْقَسَمِ، إلا لأَنَّ (إنَّ) لَيْسَتْ مِنَ التَّوْكيدِ في شَيْءٍ –أَصْلاً–.

وَإذا كُنّا قَدْ عَثَرْنا في الجُمْلَةِ العَرَبِيَّةِ عَلى مُؤَشِّرٍ لُغَوِيٍّ يَسْبِقُ (إنَّ) أَحْياناً، هُوَ الْقَسَمُ عَلى ما بَيَّنّا، عَزَّزْنا بِهِ رَفْضَنا مَقولَةَ التَّوْكيدِ المَنْسوبِ لِـ(إنَّ)، فَإِنَّنا كَذلِكَ واجِدونَ في الجُمْلَةِ مُؤَشِّراً لُغَوِيّاً آخَرَ يُرَجِّحُ أَلا تَكونَ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ، وَلَكِنَّ هذا المُؤَشِّرَ يَتْلو (إنَّ) هذِهِ المَرَّةَ وَلا يَسْبِقُها. أَعْني بِهذا دُخولَ اللامِ عَلى الخَبَرِ في نَحْوِ: ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ المُبينُ﴾[2]. فَبِالمِثْلِ أَقولُ: إِنَّ هذا الدُّخولَ لَمْ يَجُزْ –كَذلِكَ– إلا لِكَوْنِ (إنَّ) غَيْرَ دالَّةٍ عَلى التَّوْكيد.

وَطِبْقاً لِلرَّأْيِ التَّقْليدِيِّ الشّائِعِ، الذي يَقولُ بِأَنَّكَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَدَرَّجَ في التَّوْكيدِ حَسْبَ "عَدَدِ المُؤَكِّداتِ" الذي تَأْتي بِهِ في الجُمْلَة، فَتَقولَ –مَثَلاً–:

– إِنَّ الوَزيرَ مَريض. ("مُؤَكِّد" واحِد: إِنَّ)

– وَاللهِ إِنَّ الوَزيرَ مَريض. ("مُؤَكِّدان" اثْنان: وَاللهِ + إِنَّ)

– وَاللهِ إِنَّ الوَزيرَ لَمَريض. (ثَلاثَةُ "مُؤَكِّداتٍ": وَاللهِ + إِنَّ + اللام)

أَقولُ: إِذا كانَ هذا مِنْ دَرَجاتِ التَّوْكيدِ حَقّاً، وَمِنْ تَكْثيرِ المُؤَكِّداتِ صِدْقاً، فَلِماذا لَمْ يَخْطُرْ بِبالِ "الكِنْدِيِّ" السّائِل، وَلا بِبالِ "أَبي العَبّاسِ" المَسْؤول، وَهُوَ الذي كانَتْ تُضْرَبُ لَهُ أَكْبادُ الإِبِل، أَنْ يَذْكُرا الجُمْلَةَ الثّالِثَةَ ذاتَ "المُؤَكِّداتِ الثَّلاثَة": (وَاللهِ إِنَّ الوَزيرَ لَمَريض)؟! ثُمَّ لِماذا تَوَقَّفَتِ العَرَبِيَّةُ عِنْدَ حُدودِ "المُؤَكِّداتِ الثَّلاثَةِ"؟ لِمَ كانَ العَدَدُ (٣) هُوَ الحَدَّ الأَقْصى لِلمُؤَكِّداتِ في اللغة؟ لِمَ لَمْ تَبْتَدِعِ اللغَةُ مُؤَكِّداً رابِعاً وَخامِساً وَهكَذا دَوالَيْك، مادامَتِ الكَثْرَةُ أَدْعى قبولاً، وَطالَما كانَتِ الكَثْرَةُ أَكْثَرَ تَوْكيداً؟

(٣) إيرادُ الجُرْجانِيِّ "التَّوْكيدَ" في كَلامِهِ عَلى (إنَّ) مُتَأَخِّراً وَبِاقْتِضاب:

مِنَ المَلْحوظِ الذي يَنْبَغي التَّلَبُّثُ عِنْدَهُ، أَنَّ الإِمامَ "عَبْدَ القاهِرِ الجُرْجانِيِّ" –تَغَمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِه– قَدْ أَفْرَدَ نَحْواً مِنْ إِحْدى عَشْرَةَ صَفْحَةً لِلْكَلامِ عَلى (إنَّ) وَمَواقِعِها، في سِفْرِهِ الجَليلِ (دَلائِل الإِعْجاز في عِلْمِ المَعاني)[3]، وَلَمْ يَأْتِ عَلى ذِكْرِ تَوْكيدِيَّةِ (إنَّ) إلا بَعْدَ أَن اسْتَغْرَقَ كَلامُهُ في المَوْضوعِ تِسْعَ صَفحاتٍ تَقْريباً. وَلَكَأَنّي بِهِ لَمْ يَذْكُرْ هذِهِ الدّلالَةَ إلا عَرَضاً وَعَلى اسْتِحْياء، في نَحْوِ صَفْحَةٍ تَقْريباً، لأَنَّهُ كانَ –في ظَنّي– راغِباً عَنْ إِثارَةِ حَفيظَةِ النُّحاةِ وَأَتْباعِ النَّحْوِ التَّقْليدِيِّ، النَّحْوِ الذي حاوَلَ هُوَ –بِشَكْلٍ واضِحٍ في كِتابِه– خَلْخَلَةَ بَعْضِ ثَوابِتِه.

وَلَعَلَّ الإِمامَ ما كانَ راغِباً في ذِكْرِ "التَّأْكيد" مُطْلَقاً، وَلَكِنَّهُ –كَما قُلْنا– لَمْ يُرِدِ الاصْطِدامَ بِأَتْباعِ النَّحْوِ التَّقْليدِيِّ. وَمِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى، لَعَلَّهُ كانَ يَظُنُّ أَنَّ مُسايَرَةَ النُّحاةِ بِالإِبْقاءِ عَلى الدّلالَةِ القَديمَةِ المُشْتَهِرَةِ لِـ(إنَّ)، وَهِيَ "التَّأْكيد"، وَلَوْ عَلى اسْتِحْياءٍ وَعَجَل، أَدْعى في قَبولِ مُعاصِريهِ نَظْرَتَهُ الجَديدَة. فَكَأَنَّهُ، بَعْدَ عَرْضِ ما جاءَ بِهِ مِنْ طَرْحٍ مُتَقَدِّمٍ وَرُؤْيَةٍ مُتَفَوِّقَةٍ لِـ(إنَّ)[4]، يَقولُ لِمُعاصِريهِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ قَدْ يَتَعَصَّبونَ لِلنَّحْوِ التَّقْليدِيِّ الذي أَلِفوه: لا تُؤاخِذوني في ما أَقولُهُ هُنا، وَلا تُخَطِّئوني، لأَنَّ ما جاءَ بِهِ النُّحاةُ يَظَلُّ هُوَ الأَصْلَ دونَ رَيْب.

---

(١) كَما في: ﴿قالوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفي ضَلالِكَ القَديم﴾.

(٢) النَّمل ٢٧ : ١٦.

(٣) اُنْظُرْ: عبد القاهِر الجُرْجانِيّ، **دَلائِلُ الإِعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**: ص٢٤٢ – ٢٥٢.

(٤) سَنَسوقُ رُؤْيَةَ الإِمامِ لاحِقاً في مَوْضِعِهِ مِنَ البَحْث.

(٤) مَعْنى التَّوْكيد وتَأْثير (إنَّ) الإعْرابيّ:

ما مَعْنى أنَّ (إنَّ) تُؤَكِّدُ الجُمْلَة؟ أحْسَبُ أنَّهُ لا يُفْهَمُ مِنْ هذا سِوى أنَّ (إنَّ) تُؤَكِّدُ نِسْبَةَ الخَبَرِ لِلْمُبْتَدَأ، أوْ قُلْ إنَّها تُثْبِتُ صِحَّةَ إسْنادِ الخَبَرِ لِلْمُبْتَدَأ، فَلَوْ كانَ هذا صَحيحاً، فَإنَّ السُّؤالَ الضَّروريَّ الذي لا يُمْكِنُ تَجاوُزُهُ ههُنا هُوَ: وَإذَنْ، لِماذا يَقْتَصِرُ "أثَرُها" الذي تُحْدِثُهُ في الجُمْلَةِ "الاسْمِيَّةِ" عَلى المُبْتَدَأ أو المُسْنَدِ فَتَنْصِبُهُ دونَ الخَبَرِ أو المُسْنَد؟ الأوْلى أنْ تَنْصِبَ الخَبَرَ، أوْ: كُنّا نَتَوَقَّعُ أنْ تَنْصِبَ الخَبَرَ، لما عَلِمْناهُ مِنْ أنَّها تُؤَكِّدُ نِسْبَةَ الخَبَرِ لِلْمُبْتَدَأ، وَلا تُؤَكِّدُ العَكْسَ بِأيِّ اعْتِبارٍ. أيْ إنَّ (إنَّ) لا تَتَسَلَّطُ عَلى المُبْتَدَأ لِتُؤَكِّدَهُ، فَهذا مِمّا لا يُتَصَوَّرُ وَلا يَصِحُّ وَلا يَكونُ. أقْصى ما يُقالُ: إنَّها تَدْخُلُ عَلى المُبْتَدَأ لِتُؤَكِّدَ صِحَّةَ اتِّصافِهِ بِالخَبَرِ، أوْ صِحَّةَ إسْنادِ الخَبَرِ لَهُ. فَالخَبَرُ أوْ تَوَجُّهُهُ نَحْوَ المُبْتَدَأ هُوَ المُؤَكَّدُ في حَقيقَةِ الأمْرِ، وَهذا هُوَ –بِالضَّبْطِ وَحَسْبُ– مَعْنى قَوْلِهِمْ إنَّها تُؤَكِّدُ الجُمْلَةَ.

وَلَقَدْ يَتَأَسَّسُ عَلى هذا بِسُهولَةِ القَوْلُ: إنَّ تَوْكيدَ (إنَّ) الجُمْلَةَ –إنْ صَحَّ– يَنْبَغي أنْ يَتَوافَقَ –أساساً وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ– وَتَغْييرَ عَلامَةِ الخَبَرِ الإعْرابيَّة، أوْ قُلْ إنَّهُ يَجِبُ أنْ يَتَناسَبَ –عَلى الأقَلِّ– مَعَ تَغْييرِ العَلامَةِ الإعْرابيَّةِ التي يَتَحَلّى بِها كُلٌّ مِنَ المُسْنَدِ وَالمُسْنَدِ إلَيْهِ. إنْ أرومُ إلا القَوْلَ: إنَّ القَوْلَ بِتَوْكيديَّةِ (إنَّ) لا يَقْوى عَلى تَفْسيرِ لِمَ لَمْ يَتَعَدَّ "أثَرُها الإعْرابيُّ" –في اللغَةِ المُشْتَهِرَةِ– إلى المُسْنَدِ، أوْ إلى المُسْنَدِ وَالمُسْنَدِ إلَيْهِ كِلَيْهِما[١].

(٥) الغَرَض مِنَ التَّوْكيد يُرَجِّحُ عَدَمَ كَوْنِ (إنَّ) للتَّوْكيد:

مِمّا أُلْحَظُهُ بِقُوَّةٍ في العَرَبِيَّةِ السّائِرَةِ بَيْنَ النّاطِقينَ بِها، أنَّ أُسْلوبَي التَّوْكيدِ وَالقَسَمِ لا يُجاءُ بِهِما في الكَلامِ، وَلا يُلْجَأُ إلَيْهِما، إلا في حالِ كَوْنِ المُخاطَبِ شاكّاً في المَوْضوعِ المُتَحَدَّثِ عَنْه. وَهذا مُعَزَّزٌ بِما أوْرَدَهُ الإمامُ الجُرْجانيّ مِنْ أنَّكَ لا تَحْتاجُ إلى التَّأْكيدِ "إذا كانَ الخَبَرُ بِأمْرٍ لَيْسَ لِلْمُخاطَبِ ظَنٌّ في خِلافِهِ البَتَّة"[٢]. وَإذا رُحْتَ تُطَبِّقُ هذا عَلى الآيَةِ العَزيزَةِ التّالِيَةِ – مَثَلاً–: ﴿رَبَّنا إنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفي وَما نُعْلِنُ﴾[٣]، ثَبَتَ لَدَيْكَ اسْتِحالَةُ أنْ تَكونَ (إنَّ) للتَّوْكيدِ، لأنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ الحَقُّ –جَلَّ وَعَلا– شاكّاً في عِلْمِهِ بِالسِّرِّ وَالعَلَن.

وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يُقالُ في فَيْضٍ مِنَ الآيات، مِنْها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقولُ: ماذا أُجِبْتُم؟ قالوا: لا عِلْمَ لَنا إنَّكَ أنْتَ عَلامُ الغُيوب﴾[٤]. فَهَلْ يَحْتاجُ اللهُ –عِياذاً بِاللهِ مِنْ هذا– إلى مَنْ يُؤَكِّدُ لَهُ حَقيقَةَ كَوْنِهِ عَلامَ الغُيوب؟! وَهَلْ كانَ مُحَمَّدٌ –حَبيبُ الحَقِّ وَسَيِّدُ الخَلْقِ وَشَفيعُ الخَلْقِ إلى الحَقِّ– مُحْتاجاً إلى مَنْ يُؤَكِّدُ لَهُ بِأنَّهُ سَيَموتُ: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ مَيِّتون﴾[٥]، بَلْ هَلْ مَرَّ عَلى البَشَرِيَّةِ مَنْ شَكَّ لَحْظَةً في أنَّهُ سَيَموتُ؟ كانَ الشَّكُّ يَنْصَبُّ دائماً، وَفي كُلِّ مَرَّةٍ، عَلى ما بَعْدَ المَوْت. أمّا الشَّكُّ في المَوْتِ نَفْسِه، أوْ نُكْرانُهُ، فَإنَّ في وَقائِعِ الحَياةِ اليَوْميَّةِ المُشَخَّصَةِ التي تَتَعاقَبُ عَلى الإنْسانِ ما يَمْنَعُ إمْكانَ حُدوثِهِ أوْ وُقوعِه[٦].

---

(١) أجازَ بَعْضُ الكوفيّينَ نَصْبَ (إنَّ وَأخَواتِها) لِلاسْمِ وَالخَبَرِ مَعاً، وَزَعَمَ ابْنُ سَلام أنَّها لُغَةُ رُؤْبَةَ وَقَوْمِه، وَالجُمْهورُ عَلى أنَّ ذلِكَ لا يَجوز. انْظُرْ: المرادي، **الجَنى الدّاني في حُروفِ المَعاني**، ص٣٩٣ – ٣٩٤.

(٢) الجُرْجانيّ، **دَلائِلُ الإعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**: ص٢٥٠. وَانْظُرْ: الرّازيّ، **نِهايَةُ الإيجاز في دِرايَةِ الإعْجاز**: ص١٨١.

(٣) **إبْراهيم** ١٤ : ٣٨.

(٤) **المائدَة** ٥ : ١٠٩.

(٥) **الزُّمَر** ٣٩ : ٣٠.

(٦) لا يَتَعارَضُ هذا القَوْلُ إطْلاقاً مَعَ فِكْرَةِ الخُلودِ التي اعْتَقَدَها أقْوامٌ في الأزْمانِ الغابِرَة. لأنَّ الخُلودَ المَقْصودَ إنَّما يَكونُ في الحَياةِ الأُخْرى، أيْ **في المَرْحَلَةِ التي تَعْقُبُ المَوْت**. وَمِنْ هُنا أُطْلِقَ عَلَيْها عَقيدة "المَوْت وَالخُلود".

وَإذا كانَتْ (إنَّ) للتَّوكيدِ، فَكَيْفَ نَفْهَمُ بِأَنْ تُؤَكِّدَ امْرَأَةُ عِمْرانَ لله – مَعاذَ الله– خَمْسَةَ تَوكيداتٍ، وَهُوَ الله – سُبْحانَهُ – رَبُّ العالَمين العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً كامِلاً أَزَلِيّاً، مُطْلَقاً كُلِّيّاً أَبَدِيّاً؟ وَذلكَ في: ﴿إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ **إِنِّي** نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي **إِنَّكَ** أَنْتَ السَّميعُ العَليم (٣٥) فَلَمّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ **إِنِّي** وَضَعْتُها أُنْثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثى **وَإِنِّي** سَمَّيْتُها مَرْيَمَ **وَإِنِّي** أُعيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم (٣٦)﴾[1].

(٦) تَكْرارُ (إنَّ) في الجُمْلَةِ الواحِدَة:

كيفَ يمكِنُ أنْ يُوَصَّفَ تَكرارُ (إنَّ) في قولِهِ –تَعالى جَدُّهُ–: ﴿**إنَّ** الذينَ آمنوا والذين هادوا والصابئينَ والنصارى والمجوسَ والذينَ أشركوا **إنَّ** اللهَ يَفْصِلُ بينهُم يومَ القيامةِ﴾[2]؟ قَدْ يُقالُ: إنَّها ما تَكَرَّرَتْ إلا لابْتِعادِ ذاتِ الشُّقَّةِ بَيْنَ جُزْءِ الجُمْلَةِ الأوَّل، وَهُوَ (إنَّ) مَعَ اسْمِها وَما عُطِفَ عَلَيْه، عَنْ جُزْءِ الجُمْلَةِ الثّاني، وَهُوَ خَبَرُ (إنَّ)، خاصَّةً أنَّ طولَ الجُزْءِ الأوَّلِ واضِحٌ مُسْتَعْل، لِكَثْرَةِ المُتَعاطِفات.

أَقولُ: إنَّ هذا لا شَكَّ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِذي مَقْنَعٍ عِنْدَنا في كِتابِ اللهِ العَزيز، بِدَليلِ أَنَّنا نَجِدُ آيَةً كَريمَةً أُخْرى لا تَتَّصِفُ جُمْلَتُها بابْتِعادِ الجُزْأَيْن، وَتَحْوي –مَعَ ذلكَ– تَكْراراً لِـ(إنَّ). اِقْرَأْ قَوْلَ مَوْلانا: ﴿**إنَّ** الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ **إنّا** لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾[3]؟ أَعَجَزَتْ (إنَّ) عَنْ أَنْ تَكونَ للتَّوكيدِ مِنْ مَرَّةٍ واحِدَة، فَاحْتيجَ مَعَها إلى (إنَّ) أُخْرى؟ لَمْ تَطُلِ الجُمْلَةُ في الآيَةِ الثّانِيَةِ إلى حَدٍّ يُمْكِنُ مَعَهُ أَنْ يَضْعُفَ تَوكيدُ الأولى فَنَسْتَلْزِمَ الثّانِيَة، وَلا يَقولَنَّ أَحَدٌ لَنا –كَرَّةً أُخْرى– إنَّ هذا مِنْ بابِ زِيادَةِ المُؤَكِّداتِ أَوْ تَكرارِها!

(٧) بَعْضُ السَّلَفِ قالَ بِغَيْرِ التَّوكيد:

وَقَدْ يُعْتَرَضُ عَلى التَّشْكيكِ في دِلالَةِ (إنَّ) عَلى التَّوكيدِ، بِالقَوْلِ: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُخْطِئَ قَوْمُنا كُلُّهُمْ في قَوْلِهِمْ بِدِلالَةِ (إنَّ) عَلى التَّوكيد؟ أَقولُ: هُناكَ مِنَ السَّلَفِ مَنْ أَثْبَتَ لِـ(إنَّ) دِلالاتٍ أُخْرى غَيْرَ دِلالَةِ التَّوْكيدِ، كَالإمامِ الجُرْجانِيّ[4]، كَما سَلَفَ مِنّا القَوْل. وَأَقَرَّهُ عَلى كُلِّ ما جاءَ بِهِ الإمامُ الفَخْرُ الرّازِيّ[5].

(٨) أَخَواتُ العَرَبِيَّة:

إنَّ أَخَواتِ العَرَبِيَّةِ مِنَ اللغاتِ الجَزَرِيَّةِ لا تَكادُ تَعْرِفُ دِلالَةَ التَّوْكيدِ في اسْتِعْمالِ الأَدَواتِ المُقابِلَةِ لِـ(إنَّ) فيها. بَلْ هِيَ، في أَحْسَنِ الأَحْوال، دِلالَةٌ نادِرَةٌ. أَمارَةُ هذا –مَثَلاً– أَنَّ "السَّيِّد يَعقوب بَكْر" يَذْهَبُ إلى أَنَّ في (إنَّ) مَعْنى الفِعْلِ المُتَعَدّي (اُنْظُرْ!)، قِياساً عَلى ما هُوَ مَوْجودٌ في بَعْضِ اللغاتِ الجَزَرِيَّة كَاللغَةِ العِبْرِيَّة. إذْ نَعْثُرُ فيها عَلى הִנֵּה (hinnē) بِمَعْنى (اُنْظُرْ behold) [6]. وَمَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّني أَرى أَنَّهُ –بِذلكَ– لَمْ يَفْعَلْ سِوى أَنْ نَزَعَ مِنْ (إنَّ) دِلالَتَها عَلى التَّوكيد، لأَنَّ الأَداةَ التي تَعْني (اُنْظُرْ) لا تَدُلُّ عَلى التَّوكيد قَطْعاً.

وَأَظُنُّ أَنَّهُ صَواباً فَعَلَ حينَما قَنَعَ مِنَ المُقارَنَةِ بَيْنَ العَرَبِيَّةِ وَالعِبْرِيَّةِ بِما قَدَّمْتُ لَك، فَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئاً لَهُ عَلاقَةٌ بِدِلالَةِ hinnē عَلى التَّوكيد. غَيْرَ أَنَّ باحِثاً آخَرَ أَثْبَتَ لِلْكَلِمَتَيْنِ العِبْرِيَّتَيْن: הֵן (hēn)، وَהִנֵּה (hinnē)، مَعْنى (حَقّاً أَوْ

---

(١) **آلُ عِمْران** ٣ : ٣٥ – ٣٦.

(٢) **الحَجّ** ٢٢ : ١٧.

(٣) **الكَهْف** ١٨ : ٣٠.

(٤) اُنْظُرْ: الجُرْجانِيّ، **دِلائِلُ الإعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**: ص٢٤٢ – ٢٥٠.

(٥) اُنْظُرْ: الرّازِيّ، **نِهايَةُ الإيجاز في دِرايَةِ الإعْجاز**: ص١٧٨ – ١٨١.

(٦) انظر: السَّيِّد يعقوب بكر، **دراسات في فقه اللغة العربيَّة**: ص٤٨.

بالتَّأكيد)، دونَما تَوْثيقٍ أَوْ سَوْق أيِّ دَليل[١]، وَهُوَ أَمْرٌ –عَلاوَةً عَلى ما تَقَدَّمَ– تَنْفيهِ العَوْدَةُ المُتَأَنِّيَةُ لِقاموسِ "قوجمان". إِذْ نَقَعُ فيهِ عَلى المَعاني التّالِيَـــةِ لِلْكَلِمَتَيْنِ: (أُنْظُرْ، لاحِـــظْ، ها قَدْ، ها أَنَذا، هُنا)[٢]. كَذلِكَ قَدْ تَكـــونُ (hēn) أَداةً لِلْجَـــوابِ بِمَعْنى: (نَعَمْ)[٣]. وَإِذا تَكَرَّرَتْ هذِهِ الأَداةُ بِاسْـتِخْدامِ أَداةِ العَطْـفِ (الـواو): הֵן וְהֵן (hēn waahēn)، تَحَصَّلَتْ عِنْدَئِذٍ –حَسْبُ– دِلالَةُ التَّوْكيدِ. إِلا أَنَّني أَحْسَبُ أَنَّهُ تَوْكيدٌ لا يَخْتَلِفُ في شَيْءٍ عَنِ التَّوْكيدِ النّاتِجِ مِنْ تَكْرارِكَ أَيَّ كَلِمَة في أَيِّ لُغَة، كَأَنْ تَقولَ –مَثَلاً– في العَرَبِيَّةِ: (نَعَمْ نَعَمْ).

وَدَليلُ صِحَّةِ هذا التَّوَجُّهِ في الفَهْمِ، مِنْ أَنَّ اللغاتِ الجَزَريَّةَ تَكادُ تَخْلو مِنْ دِلالَةِ التَّوْكيدِ مَعَ الأَدَواتِ المُناظِرَةِ لِـــ(إِنَّ) فيها، أَنَّ "رَمْزي مُنير بعلبكي" يُشيرُ إِلى أَنَّ "التَّوْكيدَ" الذي تُبْديهِ (إِنَّ) –حَسْبَ الـرَّأْيِ التَّقْليـدِيِّ المَـشْهورِ طَبْعاً– مُتَطَوِّرٌ عَنْ مَعْنى سابِق، نَجِدُهُ حاضِراً في اللغاتِ الجزريَّةِ الأُخْرى أَخَـواتِ العَرَبِيَّـة، وَهُـوَ "**التَّنْبيـه**" **لا "التَّوْكيد"**. يَقولُ: "لا يَخْفى أَنَّ مَعْنى "إِنَّ" في الفُصْحى هُوَ التَّوْكيد، كَما أَجْمَعَ النَّحْوِيّون. إِلا أَنَّ المُقارَنَةَ بِالـسّامِيّاتِ تَدُلُّ عَلى أَنَّ هذا المَعْنى مُتَطَوِّرٌ عَنْ مَعْنى سابِق. فَفي اللغاتِ السّامِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ نَظـائِرُ لِـــ"إِنَّ"، هِـيَ hinnē فـي العِبْرِيَّة، وَhn في الفينيقِيَّة، وَhn أَو hl في الأوجاريتِيَّة. **وَهذِهِ الأَدَواتُ جَميعاً تُسْتَخْدَمُ لِلتَّنْبيه**"[٤].

مُسْتَصْفى القَوْلِ مِمّا سَلَفَ أَنَّ اللغاتِ الجزريَّةَ –وَهِيَ أَخَواتٌ لِلْعَرَبِيَّة– لا تَكادُ تَعْرِفُ دِلالَةَ التَّوْكيـدِ مَـعَ أَدَواتِها التي تُقابِلُ (إِنَّ) العَرَبِيَّة. وَمَعَ أَنَّ ثَمَّةَ كَلاماً آخَرَ لِـ"بعلبكي" مُفْهِماً بِأَنَّ التَّوْكيدَ قَدْ يَرِدُ نادِراً فـي "مَواضِـعَ مُعَيَّنَةٍ في بَعْضِ السّامِيّاتِ الشَّماليَّةِ الغَرْبِيَّة"[٥]، إِلا أَنَّ الجُمَلَ الثَّلاثَ التي اسْتَدَلَّ بِها ناقِلاً إِيّاها مِنْ غَيْرِهِ، وَحَسِبَ أَنَّها تَحْوي تَأْكيداً، تُرَدُّ بِاطْمِئْنانٍ إِلى مَعْنى (أُنْظُرْ – لاحِظْ)، أَو إِلى الإِشارَةِ إِلى الشَّخْص (ها أَنَذا)، أَوِ المَكـان (هُنـا)، فيما لا يَخْرُجُ –في المُحَصِّلَةِ– عَنِ المَعاني التي أَوْرَدَها "قوجمان" في قاموسِه. بَلْ إِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ قَدْ جـاءَ بِتَرْجَمَـةٍ لِلْجُمْلَةِ الثّالِثَةِ بِما يُخْرِجُها مِنْ دائِرَةِ التَّوْكيدِ، فَلَمْ يَذْكُرْ في تَرْجَمَتِهِ هذِهِ الجُمْلَةَ الأَداةَ (إِنَّ) مُطْلَقاً. قالَ: "**هأَنَـذا** أَعـودُ أَصْنَعُ بِهذا الشَّعْبِ عَجَباً"[٦]. وَمِنَ الجَلِيِّ أَنَّ (هأَنَذا) داخِلَةٌ في التَّنْبيهِ، أَو الإِشارَةِ إِلى الشَّخْصِ الحاضِرِ (أَنا).

وَأَكْثَرُ مِنْ ذلِكَ أَنَّ أَحَدَ أَعْلامِ الدَّرْسِ اللغَويِّ الجَزَريِّ المُقارِن، وَهُـوَ أُوليـري (O'LEARY)، يَـنُصُّ صَراحَةً عَلى أَنَّ (إِنَّ) العَرَبِيَّةَ، وَהֵן وَהִנֵּה العِبْرِيَّتَيْنِ، إِنَّمـا هِـيَ أَدَواتٌ لِتَرْكيـزِ الانْتِبـاهِ Particles directing attention، لَيْسَ غَيْر، وَلَمْ يَأْتِ عَلى ذِكْرِ دِلالَةِ التَّوْكيدِ مَعَها مُطْلَقاً[٧]. وَفَعَلَ جزينيـوس (GESENIUS) شَـيْئاً مُشابِهاً حينَما عَدَّ الكَلِمَتَيْنِ العِبْرِيَّتَيْنِ لِجَذْبِ الانْتِباهِ، وَتَرْجَمَ كُلاًّ في الجُمَلِ التي رَصَدَها بِـــ"behold"[٨]: (أُنْظُـرْ، شاهِدْ، لاحِظْ) [٩].

---

(١) أُنْظُرْ: إِسْماعيل أَحْمَد عَمايرة، **بُحوثٌ في الاسْتِشْراق وَاللغَة**: ص٢٣.

(٢) أُنْظُرْ: قوجمان، **قاموس عبري – عربي**، ص١٧٢.

(٣) أُنْظُر **السّابق نفسه**.

(٤) رمزي منير بعلبكي، **فِقْهُ العَرَبِيَّةِ المُقارَن**: ص٢٤٣.

(٥) **السّابق**: ص٢٤٤.

(٦) وَهِيَ تَرْجَمَةُ الآيَةِ ١٤، مِنْ **سِفْرِ أَشعيا**، الأصحاح ٢٩.

(٧) أُنْظُرْ: O'LEARY, **Comparative Grammar of the Semitic Languages**, p.٢٧٢.

(٨) أُنْظُرْ، وَدَعْ عَنْكَ ما قالَهُ بِشَأْنِ كَوْنِ (إِنَّ) العَرَبِيَّةِ لِلتَّوْكيد certainly, surely:

GESENIUS, **Hebrew and English** Lexicon, p.٢٤٣ – ٢٤٤.

(٩) قالَ "أحمد سُلَيْمان ياقوت": "الغالِبُ في (إِنَّ) كَما قالَ لي أُسْتاذي المُشْرِفُ أَنَّها قَعْقَعَةٌ صَوْتِيَّةٌ (كَذا)، لاسْتِفْتاحِ الكَلامِ وَلِتَنْبيهِ السّامِعِ إِلى أَنَّ هُناكَ جُمْلَةً سَتَبْدَأُ، فَيُرَكِّزُ انْتِباهَهُ وَحَواسَّهُ لِما يُقالُ، فَلا يَفوتُهُ شَيْءٌ مِنَ العَناصِرِ الأَساسِيَّةِ في الجُمْلَة. وَذلِكَ أَنَّهُ إِذا فاتَهُ شَيْءٌ، فَإِنَّما يَفوتُهُ ما يُقالُ أَوَّلاً، أَيْ (إِنَّ)، وَتَظَلُّ العَناصِرُ الأُخْرى باقِيَة، فَلَنْ تَـنْقُصَ الفائِدَة. وَهذِهِ الحالَةُ مِثْلُ مَنْ يَقولُ لَكَ: "بُص .. اُنْظُرْ .. شوف"، وَهُوَ نَفْسُ مَعْنى (إِنَّ) في البابِلِيَّة كَما أَشَرْتُ، يُريدُ أَنْ يَسْتَرْعِيَ انْتِباهَكَ لِجُمْلَةٍ يَوَدُّ أَنْ يَقولَها، وَيَخـافُ أَنْ يَفوتَكَ شَيْءٌ مِنْها" (أحمد سُلَيْمان ياقوت، **النَّواسِخ الفِعْلِيَّة وَالحَرْفِيَّة: دِراسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ مُقارِنَة**، ص١٧٢ – ١٧٣).

(٩) التَّرْجَمَة إلى العَرَبِيَّة:

تَنْهَضُ التَّرْجَمَةُ دَليلاً عَلى أنَّ الأداةَ (إنَّ)، التي قيلَ إنَّها لِلتَّوْكيدِ، لَيْسَ لَها مُتَعَلَّقٌ بِالتَّوْكيد. وَقَد إبْتَدَأ مَلْحَظي هذا عِنْدَما كُنْتُ أُتابِعُ بَعْضَ التَّرْجَماتِ الفَوْرِيَّةِ مِن اللغَةِ الإنْجليزِيَّةِ إلى العَرَبِيَّةِ، وذلكَ في عَدَدٍ مِنْ وَسائِلِ الإعْـلامِ العَرَبِيَّةِ المَرْئِيَّةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ لي أنَّ المُتَرْجِمَ تَرْجَمَةً فَوْرِيَّةً –وَفي غَيْرِ الفَوْرِيَّةِ كَذلكَ– كَثيراً ما يَلْجَأُ إلى اسْتِخْدامِ (إنَّ)، مِنْ دونِ أنْ يَكونَ هُناكَ أدْنى شُبْهَةٍ مِنْ تَوْكيدٍ أوْ نَحْوِهِ في اللغَةِ الأجْنَبِيَّةِ المُتَرْجَمِ عَنْها.

مِثالُ هذا – وَما أكْثَرَهُ – ما وَرَدَ في أحَدِ بَرامِجِ هَيْئَةِ الإذاعَةِ البريطانِيَّة (BBC)، في السّاعَةِ الخامِسَةِ وَسَبْعٍ وَخَمْسينَ دَقيقَةً تَقْريباً، مِنْ مَساءِ يَوْمِ: ٢٠٠٧/١١/١م. فَقَدْ جاءَ كلامٌ بالإنجليزِيَّة هذا نصُّهُ:

Jacky said: They killed my husband.

وكانَ أنْ وَرَدَتْ في البَرْنامَجِ تَرْجَمَةُ هذِهِ الجُمْلَةِ على النَّحو: **(قالَتْ جاكي: إنَّهُمْ قَتَلوا زَوْجي)**. فَلَعَمْري أيْنَ المُقابِـلُ لِـ(إنَّ) في الجملةِ الإنجليزِيَّةِ؟ لا شيءَ فيها مُطْلَقاً يَشي بِدِلالَةِ التَّوْكيدِ، لا مِنْ قَريبٍ وَلا مِنْ بَعيدٍ.

وَالأمْرُ لا يَحْتاجُ –حَسْبَما أرى– إلى شَواهِدَ تُبَيِّنُ أنَّ الأصْلَ الأجْنَبِيَّ المُتَرْجَمَ عَنْهُ إلى العَرَبِيَّةِ لَيْسَ فيهِ مـا يُوازي (إنَّ). ذلكَ أنَّ (إنَّ) نَفْسَها بَعْدَ القَوْلِ وَصَدْرَ المَقولِ المَحْكِيِّ حِكايَةً لا أثَرَ لأداةٍ تُقابِلُها في اللغـاتِ الأُخْـرى، وَأمّا إنْ كانَ المَقولُ المَنْقولُ مُخْبَراً إخْباراً (كَلاماً غَيْرَ مُباشَرٍ)، فَإنَّنا نَعْثُرُ بِسُهولَةٍ عَلـى أداةٍ شَـبيهَةٍ، فَهِـيَ فـي الإنْجليزِيَّةِ –مَثَلاً– (that).

وَلَقَدْ تَعَزَّزَ لَدَيَّ هذا المَلْحَظُ عِنْدَما أَلْفَيْتُ القِصَصَ وَالرِّواياتِ وَالمَسْرَحِيّاتِ وَالكُتُبَ المُخْتَلِفَةَ المُتَرْجَمَةَ إلـى العَرَبِيَّةِ –عَلى تَبايُنِ أنْواعِها وَحُقولِها وَمَضامينِها بَلْ وَلُغاتِها– يَحْتَوي كَثيرٌ مِنْ جُمَلِها عَلى (إنَّ)، دونَ أنْ يَكونَ في النَّصِّ الأصْلِيِّ المُتَرْجَمِ أيُّ أثَرٍ لِلتَّوْكيدِ، وَدونَ أنْ تَكونَ ثَمَّ حاجَةٌ أصْلاً –في سِياقِ الكَلامِ– تَسْتَدْعي اللجـوءَ إلـى التَّوْكيدِ.

إنَّكَ إنْ قَرَأْتَ –مَثَلاً– ما جاءَ على لِسانِ "إدموند Edmund" في مَسْرَحِيَّةِ (المَلِكِ لير) لِشكـسبير، وَهُـوَ يُقارِنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أخيهِ "إدغر Edgar":

- "My body is as strong as his".(١)

لَمْ تَجِدْ فيها عَلى الصَّعيدِ اللغَوِيِّ المَلْفوظِ ما يُفْصِحُ عَن التَّوْكيد. بَيْدَ أنَّ المُتَرْجِمَةَ أتَـتْ بِـالأداةِ (إنَّ)، فَقالَـتْ فـي تَرْجَمَتِها: "إنَّ جِسْمي قَوِيٌّ قَدْرَ جِسْمِهِ"(٢).

صَحيحٌ أنَّ السِّياقَ قَدْ يُلْمِحُ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ إلى إصْرارٍ قَويٍّ مِنْ "إدموند" عَلى إثْباتِ بُطْلانِ اعْتِقـادِ مَـنْ يَذْهَبُ مِن النّاسِ إلى أنَّ "إدغر" أحْسَنُ مِنْهُ، خاصَّةً أنَّ تِلْكَ الجُمْلَةَ ما قالَها "إدموند" إلا بَعْدَ سؤالٍ أوْرَدَهُ بِشَأنِ أخيـهِ "إدغر" مُباشَرَةً، هكَذا: "لِماذا يَعْتَقِدُ النّاسُ أنَّهُ أهَمُّ مِنّي؟ إنَّ جِسْمي قَوِيٌّ قَدْرَ جِسْمِهِ"(٣):

---

(١) شكسبير، أرْوَعُ ثَلاثِ مَسْرَحِيّاتٍ لِشكبير: ص٩٧.

(٢) السّابِق: ص٩٦.

(٣) السّابِق نفسه.

- "Why do people think that he is more important than I am? My body is as strong as his"(١).

وَمَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّ ذلكَ الإِصْرارَ لَمْ يَرْقَ مِن النّاحِيَةِ اللغَوِيَّةِ اللفْظِيَّةِ إِلى مَرْتَبَةِ التَّوْكِيدِ. أَوْ قُلْ: إِنَّهُ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالتَّوْكِيد. فَالإِصْرارُ المَلْموحُ مَعْنَوِيّاً في أَيِّ نَصّ، هُوَ غَيْرُ التَّوْكِيدِ بِاسْتِعْمالِ لَفْظٍ مِن أَلْفاظِ "التَّوْكِيدِ" الخاصَّةِ. أُريدُ لأَسْأَلَ: إِذا كانَ الكَلامُ في الجُمْلَةِ الإِنْجِليزِيَّةِ لا يَشْتَمِلُ عَلى شُبْهَةِ تَوْكِيدِيَّةٍ في الجُمْلَةِ الأُولى، فَلِماذا ارْتأَت المُتَرْجِمَةُ، وَهِيَ ناطِقَةٌ بِالعَرَبِيَّة، أَنْ تُصَدِّرَها بِـ(إِنَّ)؟ عَلى حين أَنَّ المُتَرْجِمَةَ نَفْسَها، في مَسْرَحِيَّةٍ أُخْرى، هِيَ "روميو وَجولييت"، قَدْ نَقَلَتْ إِلى العَرَبِيَّةِ أَرْبَعَ جُمَلٍ مُتَوالِيَةٍ جاءَتْ عَلى لِسانِ "روميو Romeo":

- "**It is Juliet**!" He said quietly. "Oh! **It is my love**! **She is as beautiful as the sun**. **She is looking up at the stars**."

عَلى نَحْوٍ كانَت فيهِ الجُمَلُ العَرَبِيَّةُ الأَرْبَعُ المُتَرْجَمَةُ مَبْدوءَةً كُلُّها أَرْبَعَتِها بِـ(إِنَّ)! هكَذا: "قالَ بِهُدوءٍ: **إِنَّها جولييت**! آه! **إِنَّها حُبّي**. **إِنَّها جَميلَةٌ كَالشَّمْسِ**. **إِنَّها تَنْظُرُ إِلى النُّجومِ**".

أَرْمي مِنْ وَراءِ ما سَبَقَ إِلى القَوْلِ: إِنَّ مَقولَةَ التَّوْكيدِ التي أُلْصِقَتْ بِـ(إِنَّ) قَسْراً، فَلَصَقَتْ بِها، لا تَكْفي لِلإِجابَةِ عَنِ الأَسْئِلَةِ السّابِقَةِ، بَلْ لا تَقْوى عَلى تَفْسيرِ بَعْضِها. أَمّا إِذا تَجاوَزْنا نَحْنُ مَقولَةَ التَّوْكيدِ إِلى غَيْرِها، فَسَنَجِدُ التَّفْسيرَ التّالِيَ: إِنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مِنَ الجُمَلِ القَصيرَةِ الأَرْبَعِ المُتَتالِيَةِ تُقَدِّمُ لِلْمُتَلَقّي مَعْلومَةً جَديدَةً(٢). وَكَأَنَّ الأَمْرَ مُنْطَوٍ – في كُلِّ مَرَّةٍ مِنَ المَرّاتِ الأَرْبَع– عَلى سؤالٍ مُتَوَهَّمٍ، تَوَهَّمَهُ "روميو" مُفْتَرِضاً أَنَّ سائِلاً سَأَلَهُ عَن تِلْكَ الفَتاةِ (اسمِها، وَعَلاقَتِهِ بِها، وَكيفَ تَبْدو لَهُ، وَماذا تَعْمَل):

١. ما اسْمُها؟

---> جولييت.

---> **إِنَّها** جولييت.

٢. ماذا تَكونُ لَكَ؟ / أَوْ: ما مَنْزِلَتُها عِنْدَك؟ / أَوْ: ما عَلاقَتُكَ بِها؟

---> هِيَ حُبّي.

---> **إِنَّها** حُبّي.

٣. ما رَأْيُكَ فيها؟ / أَوْ: كَيْفَ تَبْدو لَكَ؟

---> جَميلَةٌ كَالشَّمْسِ.

---> **إِنَّها** جَميلَةٌ كَالشَّمْسِ.

٤. ماذا تَفْعَلُ حَبيبَتُكَ؟ / أَوْ ماذا تَعْمَلُ حَبيبَتُكَ؟

---> تَنْظُرُ إِلى النُّجومِ.

---> **إِنَّها** تَنْظُرُ إِلى النُّجومِ.

وَإِنْ نَحْنُ رَجَعْنا النَّظَرَ شَطْرَ الجُمْلَتَيْنِ: "إِنَّ جِسْمي قَوْيٌّ قَدْرَ جِسْمِهِ. وَذِهْني صافٍ قَدْرَ ذِهْنِهِ"، لَمْ نَجِد الشَّيْءَ عَيْنَهُ ماثِلاً. فَالجُمْلَةُ الأُولى (إِنَّ جِسْمي قَوْيٌّ قَدْرَ جِسْمِهِ)، هِيَ وَحْدَها التي تُشَكِّلُ مَعْلومَةً جَديدَةً لِلْمُتَلَقّي،

---

(١) السّابق: ص٩٧.

(٢) وَهِيَ إِحْدى الوَظائِفِ التي تُسْنَدُ لِـ(إِنَّ) في العَرَبِيَّةِ، طبقاً لِما سَنُفَصِّلُ فيهِ القَوْلَ لاحِقاً.

فَتُطْلِعُهُ عَلى رَأْيِ "إدموند Edmund" مِنْ أَنَّهُ لا فَرْقَ –بِشَكْلٍ عامٍّ– بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخيهِ "إدغر Edgar"، خاصَّةً مِنْ جِهَةِ القُوَّةِ الجِسْمانِيَّةِ، فَاحْتَوَتْ عَلى (إنَّ).

(١٠) مَيْدانُ التَّعْليم:

وَالحَقُّ أَنَّ القَوْلَ بِأَنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ – قَبْلَ ذلكَ وَبَعْدَهُ – يَنْطَوي عَلى قَدْرٍ مِنَ التَّضْليلِ لِمُتَعَلِّمي العَرَبِيَّةِ، النّاطِقينَ بِها وَالنّاطِقينَ بِغَيْرِها. ذلكَ أَنَّ مُطْلِقَ ذلكَ القَوْلِ لَمْ يَذْكُرْ لَنا المَواطِنَ التي تُسْتَعْمَلُ فيها (إنَّ) لِلتَّوْكيد! أَوْ لَمْ يُجِبْ عَنِ السُّؤال: هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَعْمِلَها النّاطِقُ بِالعَرَبِيَّةِ –أَوْ مُتَعَلِّمُها– كَيْفَما اتَّفَقَ لَه؟ لِماذا نَجِدُ المُنْشِئينَ وَالكُتّابَ وَالشُّعَراءَ لا يَسْتَعْمِلونَها إلا في مَواطِنَ مَحْدودَةٍ مَعْدودَةٍ مِنْ نُصوصِهِم؟! لِماذا لا يُؤَكِّدونَ كَلامَهُمْ كُلَّهُ؟ أَوْ لِماذا لا يُؤَكِّدونَ كَلامَهُمْ دائماً؟ بِاخْتِصارٍ: إنَّ الاقْتِصارَ عَلى القَوْلِ بِأَنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ لا يُعَلِّمُ الطّالِبَ اسْتِخْدامَ (إنَّ) إطْلاقاً، وَلا يُعَلِّمُهُ تَوْظيفَها التَّوْظيفَ العَمَلِيَّ الذي يُحاكي وُجودَها اللغَوِيَّ الماثِلَ في النُّصوص.

(١١) اللهجات المَحْكِيَّة:

إنَّ الناطِقَ بِالعَرَبِيَّةِ اليَوْمَ لا يَعْرِفُ في لهجتِهِ المَحْكِيَّةِ سِوى (إنَّ)، فَإِذا كانَتْ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ فِعْلاً، فَكَيْفَ نُفَسِّرُ اقْتِصارَ اللهجاتِ المَحْكِيَّةِ اليَوْمَ عَلى (إنَّ)، وَخُلُوَّها –في حُدودِ عِلْمي– مِنْ مَفْتوحَةِ الهَمْزَةِ (أَنَّ)؟ فَإِنَّنا نَجِدُ النّاطِقَ يُحِلُّ (إنَّ) في اللهْجَةِ مَحَلَّ (أَنَّ) دائماً، فيقول –مَثَلاً–: "عْرِفْنا إنُّهْ مْسافِر..."، و"حَكَتْ لي إنُّهْ مَريض..."، و"مِن المُسْتَحيلْ إنُّهْ يوكِلِ اللحِم"، "كَإِنّي بَعْرِفُه"،... . هَلْ نُفَسِّرُ الأَمْرَ عَلى أَنَّهُ تَوْكيدٌ كُلُّه؟ هَلْ النّاطِقونَ بِالعَرَبِيَّةِ شَغوفونَ بِالتَّوْكيدِ إلى هذا الحدِّ؟ كَيْفَ انْتَشَرَتْ بَلِ اسْتَفْحَلَتْ دِلالَةُ التَّوْكيد في لَهجاتِنا المَحْكِيَّةِ، إنْ كانَتْ (إنَّ) لِلتَّوْكيد؟

ثانياً: (إنَّ) أَداةُ إِخْبارٍ وَجَوابٍ وَرَبْطٍ وَاتِّكاءٍ مَقولِيٍّ:

قَمينٌ بي أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنَّ ثَمَّةَ إِمْكاناً لأَنْ تَكونَ أَوْجُهُ (إنَّ) المُتَبَنّاةُ في الْبَحْثِ غَيْرَ مُسْتَغْرِقَةٍ كُلَّ اسْتِعْمالاتِها الماثِلَةِ في نُصوصِ العَرَبِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ، المُمْتَدَّةِ زَماناً، المُتَفاوِتَةِ مَكاناً. وَهذا لا طاقَةَ لي بِهِ البَتَّةَ، وَلِذلكَ فَأَنا "أَعْرِضُ هذا الرَّأْيَ عَلى حَضَراتِ العُلَماء، راجِياً أَنْ يُوافوني بِما يَرَوْنَهُ الصَّواب، حَتّى إِذا ظَهَرَ لي الحَقُّ في غَيْرِ ما قُلْتُ، عُدتُ إِلى ما رَسَموا لي، ضارِباً بِقولي عُرْضَ الحائِط، فَلَسْتُ بِالمُتَعَنِّت، وَلا بِالمُفْتونِ بِقَوْلي وَرَأْيي، وَلا مِمَّنْ تَنَزَّهوا عَنِ الخَطَأ، "وَاللهُ يَقولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدي السَّبيلَ""[1].

وَظيفَةُ (إنَّ) في التَّرْكيب

أَتَيْنا سالِفاً عَلى رَأْيِ للسَّيِّد يَعقوب بَكْر يَذْهَبُ فيهِ إِلى أَنَّ في (إنَّ) مَعْنى الفِعْلِ المُتَعَدّي (أُنْظُرْ!)، قِياساً عَلى ما هُوَ مَوْجودٌ في بَعْضِ اللغاتِ الجَزْرِيَّةِ كَاللغَةِ العِبْرِيَّةِ. إِذْ نَعْثُرُ فيها عَلى הִנֵּה (hinnē) بِمَعْنى (أُنْظُرْ behold). وَهذا المَعْنى الفِعْلِيُّ –حَسْبَ رَأْيِهِ– هُوَ السَّبَبُ في نَصْبِ اسْمِ (إنَّ). فَقَوْلُنا: (إنَّ زَيْداً قائِمٌ) تَقْديرُهُ: (**أُنْظُرْ زَيْداً! هُوَ قائِمٌ**). فَـ(زَيْداً) –عِنْدَهُ– مَفْعولٌ بِهِ لِـ(إنَّ)، وَأَمّا (قائِمٌ) فَخَبَرٌ لِضَميرٍ مَحْذوفٍ تَقْديرُهُ (هُوَ)[2].

وَرَغْمَ ما يَنْطَوي عَلَيْهِ هذا الرَّأْيُ لِلْوَهْلَةِ الأولى مِنْ طَرافَةٍ وَوَجاهَةٍ، إلا أَنَّنا بِحَقٍّ لَيْسَ يُمْكِنُنا أَنْ نَتَقَبَّلَهُ. لا لأَنَّهُ مَحْضُ افْتِراضٍ وَلا دَليلَ عَلَيْهِ مِنْ باطِنِ اللغَةِ العَرَبِيَّةِ نَفْسِها، بَلْ لأَنَّ التَّقْديرَ المَزْعومَ يَحْرِفُ الكَلامَ عَنْ وِجْهَتِه، وَيُحَوِّلُ الكَلامَ إلى كَلامَيْنِ، أَوْ يَشْطُرُ الإِسْنادَ إلى إِسْنادَيْنِ هكَذا: (١) أُنْظُرْ زَيْداً! (٢) هُوَ قائِمٌ. وَهذا –عَلى

---

(١) قَوْلٌ مُعْجِبٌ أَحْفَظُهُ مُنْذُ زَمَنِ الطَّلَبِ الأَوَّل، أَحْبَبْتُ إيرادَهُ هُنا، وَقَدْ وَرَدَ مِنْ قَبْلُ لَدى باحِثٍ أُنْسيتُ اسْمَه، في بَحْثٍ جَهِلْتُ وَسْمَه.

(٢) أُنْظُر: السَّيِّد يَعقوب بَكْر، **دِراساتٌ في فِقْهِ اللغَةِ العَرَبِيَّة**: ص٤٨ – ٥٠.

الأَقَلِّ فيما آلَتْ إِلَيْهِ الحالُ في العَرَبِيَّةِ- مِمّا لا يَسْتَشْعِرُهُ النّاطِقُ بِالعَرَبِيَّةِ مِنْ قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ حينَما يَنْطِقُ أَوْ يَسْمَعُ الجُمْلَةَ ذاتَ الإِسْنادِ الواحِدِ: (إِنَّ زَيْداً قائِمٌ)[1].

وَلا يَفْهَمَنَّ امْرُؤٌ مِنْ هذا، بِطَبيعَةِ الحالِ، أَنَّنا نُؤْثِرُ أَنْ نَغُضَّ الطَّرْفَ عَنْ مَسْأَلَةِ نَصْبِ (إِنَّ) الاسْمَ بَعْدَها، بَلْ هِيَ -في تَصَوُّري- مَسْأَلَةٌ في غايَةِ الأَهَمِّيَّة، يَنْبَغي الاعْتِناءُ بِها، وَتَسْليطُ الضَّوْءِ عَلَيْها عالِياً، لكِنْ مِنْ غَيْرِ ما تَزَيُّدٍ أَوْ مُبالَغَة. أَقولُ: إِنَّ تَطْبيقَ الشُّروطِ التَّرْكيبِيَّةِ التي يَفْرِضُها دُخولُ (إِنَّ) في التَّرْكيبِ -وَكَذا الأَداة (أَنَّ)- يُؤَدّي إِلى دِلالَةٍ تَشْتَرِكُ فيها الأَنْواعُ المُتَعَدِّدَةُ لِـ(إِنَّ) التي سَيَأْتي عَلى ذِكْرِها هذا البَحْث. أَعْني أَنَّ ثَمَّةَ دِلالَةً مُشْتَرَكَةً مُتَأَتِّيَةً مِنْ تَحَكُّمِ هذهِ الأَداةِ وَتَأْثيرِها في البِنْيَةِ التَّرْكيبِيَّةِ لِلْجُمْلَةِ التي تَتَصَدَّرُها.

فَذِكْرُها مَطْلَعَ الجُمْلَةِ مُسْتَلْزِمٌ بِنْيَةً مُحَدَّدَةً لهذهِ الجُمْلَةِ، في ما هُوَ مَعْروف. بِمَعْنى أَنَّ مَجيءَ (إِنَّ) قَبْلَ إِسْنادٍ ما، يَفْرِضُ عَلَيْهِ قُيوداً شَكْلِيَّة، تَتَمَثَّلُ في وُجوبِ أَنْ تَلِيَها جُمْلَةٌ ذاتُ إِسْنادٍ أَصْلِيٍّ (تامٍّ)، وَأَنْ لا يَكونَ الفِعْلُ مِمّا يَبْدَهُ هذهِ الجُمْلَة. وَهذا مُفْهِمٌ بِأَنَّ اللغَةَ تَرْفُضُ المُتَوالِيَةَ: (إِنَّ + فِعْل). وَالأَمْرُ لَيْسَ مُتَوَقِّفاً عِنْدَ هذَيْنِ الشَّرْطَيْن، بَلْ يَتَجاوَزُهُما إِلى التَّأْثيرِ في بِنْيَةِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ الاسْمِ أَوِ الضَّمير، عَنْ طَريقِ إِلْزامِهِ حالَةً واحِدَةً هِيَ النَّصْب.

وَمِنَ الواجِبِ أَنْ نَلْفِتَ النَّظَرَ إِلى أَنَّ دُخولَ (إِنَّ) الجُمْلَةَ -وَكَذا (أَنَّ)- يُشَكِّلُ ظاهِرَةً فَريدَةً في العَرَبِيَّة، إِذْ بِمُقْتَضى هذا الدُّخولِ نَشْهَدُ تَحَوُّلاً في عَلامَةِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ الإِعْرابِيَّةِ مِنَ الرَّفْعِ إِلى النَّصْب. وكانَ المُتَوَقَّعُ، جَرْياً عَلى ما أَلِفْناهُ في الشّائِعِ مِنْ أَمْرِ اللغَةِ، أَنْ يَتَحَلّى المُسْنَدُ إِلَيْهِ بِعَلامَةِ الرَّفْعِ لا النَّصْب، اسْتِناداً إِلى ما نَراهُ مُتَحَقِّقاً في الفاعِلِ وَنائِبِهِ، وَالمُبْتَدَأِ وَخَبَرِهِ، وَاسْمِ كانَ وَأَخَواتِها، وكادَ وَأَخَواتِها. وَيَنْبَغي – في رأيي- أَنْ لا يُمَرَّ عَلى هذا التَّغَيُّرِ في عَلامَةِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ الإِعْرابِيَّةِ دونَ تَدَبُّر. فَإِضافَةً إِلى ما تَقومُ بِهِ (إِنَّ) مِنْ دَوْرٍ دِلالِيٍّ يُذْكَرُ لاحِقاً، فَإِنَّها بِنَصْبِها المُسْنَدَ إِلَيْهِ، تَقومُ بِلَفْتِ الانْتِباهِ إِلَيْهِ، وَتَرْكيزِ الاهْتِمامِ عَلَيْهِ.

وَحَسْبَ هذا، فَإِنَّ ما تَقومُ بِهِ (إِنَّ) مِنْ نَصْبٍ لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، عَلى غَيْرِ ما هُوَ مُعْتادٌ مِنْ أَمْرِ اللغَةِ في رَفْعِهِ، لَيْسَ لَهُ سِوى تَفْسيرٍ واحِدٍ، هُوَ أَنَّ هذهِ الأَداةَ تَقومُ مِنَ الوِجْهَةِ الدّلالِيَّةِ بِوَظيفَةِ **إِبْرازٍ أَوْ إِظْهارٍ** لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِوَصْفِهِ مَوْضوعَ الحَديثِ وَبُؤْرَةَ الكَلام[2]. وَبِذا فَإِنَّني أَدْعو إِلى أَنْ يُسْتَبْدَلَ بِالعِبارَةِ الشّائِعَةِ (إِنَّ : أَداةُ تَوْكيد) عِبارَةُ (إِنَّ : أَداةُ إِظْهارٍ، أَوْ إِبْراز، أَوْ تَنْبيه -عَلى ما يَرى O'LEARY وَغَيْرُهُ-)، دونَ الاكْتِفاءِ بِهذهِ الدّلالَةِ، نَظَراً لِما سَيَأْتي بَيانُه. **وَلكِنْ مِنَ الضَّروريِّ جِدّاً الإِشارَةُ إِلى أَنَّ وَظيفَةَ الإِبْرازِ هذهِ لَيْسَتْ تَنْحَصِرُ في (إِنَّ) وَحْدَها، بَلْ هِيَ وَظيفَةُ كُلِّ العَناصِرِ اللغَوِيَّةِ التي تَعْمَلُ عَمَلَها، تِلْكَ المُسَمّاة تَقْليدِيّاً بِـ(إِنَّ وَأَخَواتِها)**[3]. وَهذهِ النَّتيجَةُ تَضْطَرُنا اضْطِراراً إِلى أَلا نَقْنَعَ مِنَ الأَمْرِ بِهذهِ الدّلالَةِ لِـ(إِنَّ)، بَلْ هِيَ تُشَكِّلُ دافِعاً قَوِيّاً لِقِيامِنا بِالبَحْثِ عَنْ وَظيفَةٍ أُخْرى لِـ(إِنَّ) أَوْ دَوْرٍ آخَرَ لَها.

إِذَنْ، فَوَظيفَةُ الإِبْرازِ أَوِ الإِظْهارِ هذهِ وَظيفَةٌ عامَّةٌ، تَنْطَبِقُ عَلى كُلِّ (إِنَّ) في العَرَبِيَّة، بَلْ وَعَلى غَيْرِها مِنْ "أَخَواتِها". وَأَهَمُّ ما في هذهِ الوَظيفَةِ أَنَّها اقْتَضَتْها طَبيعَةُ الشُّروطِ التَّرْكيبِيَّةِ التي تُصاحِبُ دُخولَ (إِنَّ) الجُمْلَة. ثُمَّ إِنَّ

---

(١) تَجْدُرُ الإِشارَةُ إِلى أَنَّ ما نَقولُهُ هُنا مُصَحَّحٌ مِنَ الوِجْهَةِ الوَصْفِيَّة، وَهذا لا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَكونَ تَقْديرُ "السَّيِّد يَعْقوب بَكْر" صالِحاً مِنَ الوِجْهَةِ التّاريخِيَّة.

(٢) هوَ رَأْيٌ لِفشر، انظرْهُ في: إِسْماعيل أَحمد عمايرة، **بُحوثٌ في الاسْتِشْراق وَاللغَة**: ص٤٤٦.

(٣) اُنْظُرْ: عُمَر عُكاشَة، (أَنَّ) أَداةُ رَبْطٍ وَإِظْهارٍ لا أَداة تَوْكيد، **أَبْحاثُ اليَرْموك** – سِلْسِلَةُ الآدابِ وَاللغَوِيّات، المُجَلَّد الثّاني وَالعِشْرون، العَدَد الثّاني، ٢٠٠٤.

أراني –بِنظْرَةٍ أحْسَبُها أدَقّ– مَيّالاً لِلْقَوْلِ: إنَّ "الإبْرازَ" أوِ "التَّنْبيهَ" أوِ "الإظْهارَ" لَيْسَتْ دِلالَةً لِـ(إنَّ) في حَدِّ ذاتِها، بَلْ **هِيَ دِلالَةٌ مُتَرَتِّبَةٌ عَلى أمْرَيْنِ اثْنَيْنِ**: الأوَّل، لُزوم المُسْنَدِ إلَيْهِ مَوْقِعاً مُحَدَّداً، وَهُوَ مَجيئُهُ بَعْدَ (إنَّ) مُباشَرَةً. وَالثّاني: نَصْبُها هذا المُسْنَد إلَيْه. وَإنَّني أُقَدِّرُ أنَّ في هذا تَحْفازاً كافِياً لِعَدَمِ الاكْتِفاء بِمَقولَةِ التَّنْبيهِ التي يُرَدِّدون، وَمُحاوَلَةِ تَلَمُّسِ دِلالَةٍ ثانِيَة.

وَقَدْ تَسْلُكُ (إنَّ) عَلى الصَّعيدِ التَّرْكيبِيِّ أيْضاً، مَسْلَكَ أدَواتِ الرَّبْط، وَذلِكَ –حَسْبُ– في مَوْطِنَيْنِ اثْنَيْنِ لَمْ نَجِدْ لَهُما ثالِثاً. أمّا الأوَّلُ فَمَجيئُها في جُمْلَةِ القَوْلِ مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ العِبارَةِ القَوْلِيَّةِ (فِعْل القَوْل+القائل) وَجُمْلَةِ المَقولِ المَنْقول (أوْ جُمْلَةِ مَقولِ القَوْل). وَأمّا المَوْطِنُ الثّاني، فَمَجيئُها أوَّلَ الإسْنادِ الذي يَحْمِلُ الدَّوْرَ الدَّلالِيَّ (السَّبَب). وَنَبْسُطُ القَوْلَ في هذَيْنِ وَنُفَصِّلُهُما في حينِهِما.

دَوْرُ (إنَّ) الدَّلالِيُّ في الجُمْلَةِ العَرَبِيَّة

وَإذا نَحَّيْنا جانِباً الدَّوْرَ الدَّلالِيَّ الخالِيَ، المُسَبَّبَ عَنْ تَسَلُّطِ (إنَّ) عَلى الاسْمِ الذي يَتْبَعُها مُباشَرَةً وَنَصْبِها إيّاه، وَجَدْنا أنَّ هُناكَ دَوْراً دِلالِيّاً عامّاً آخَرَ تَنْهَضُ بِهِ (إنَّ) وَلا يُفارِقُها، وَلكِنَّها في هذِهِ المَرَّةِ تَخْتَصُّ بِهِ دونَ غَيْرِها –مِنْ ناحِيَةٍ أولى–، وَهُوَ لَيْسَ مُتَوَلِّداً مِنْ تَطْبيقِ شُروطٍ تَرْكيبِيَّةٍ مُصاحِبَةٍ –مِنْ ناحِيَةٍ ثانِيَة–.

(١) (إنَّ) أداةٌ للإخْبار:

تَرِدُ (إنَّ) في اللغَةِ العَرَبِيَّةِ –كَما يَراها الباحِثُ الحالِيُّ– بِوَصْفِها أداةً لِـ"الْخَبَرِ" أوِ "الإخْبارِ"، وَهذِهِ الدِّلالَةُ هِيَ الدِّلالَةُ الرَّئيسَةُ لَها، وَتَنْتَظِمُ تَحْتَها –كَما سَيَسْتَعْلي– عِدَّةُ دِلالاتٍ فَرْعِيَّةٍ أُخْرى، تُرَدُّ بَلْ تَرْتَدُّ كُلُّها إلَيْها بِطَريقَةٍ أوْ بِأُخْرى. بِعِبارَةٍ ثانِيَةٍ: إنَّ دِلالَةَ (إنَّ) المَزْعومَةَ عَلى "الإخْبارِ"، إنْ هِيَ إلا مِظَلَّةٌ كُبْرى تَحْتَضِنُ أدْوارَ (إنَّ) الدَّلالِيَّةَ الأُخْرى كافَّة. فَتَأْتي (إنَّ) بِوَصْفِها أداةً لِلرَّدِّ والجَواب، أوْ لِتَقْديمِ الرَّأْيِ، أوْ لِتَقْديمِ مَعْلومَةٍ جَديدَة، أوْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ المَوْضوعاتِ المُخْتَلِفَةِ حينَما تَتَجاوَر، أوْ لِلرَّبْطِ وَنَقْلِ الكَلام، أوْ لِلرَّبْطِ عَلى مَعْنى التَّعْليلِ السَّبَبِيّ. وَيُمْكِنُ بَعْدَ هذا أنْ نُوَصِّفَ هذِهِ الأداةَ بِالقَوْلِ: (إنَّ) **أداةٌ لِلإخْبارِ**، لِلإخْبارِ بِالخَبَرِ، أوِ الإخْبارِ بِالجَواب، أوِ الإخْبارِ بِالسَّبَب، أوِ الإخْبارِ بِالرَّأْيِ،...

قُلْتُ: إنَّ الدِّلالاتِ سِوى الإخْبارِ تُرَدُّ إلى دِلالَةِ الإخْبارِ نَفْسِها، فَالتَّعْليلُ –مَثَلاً أوَّلاً– يَنْتَظِرُهُ المُتَلَقّي المُخاطَبُ انْتِظارَهُ الخَبَرَ، فَيُؤْتى –لِذلِكَ– بِـ(إنَّ) في مِثْلِ: (أكْرِمْ زَيْداً. **إنَّهُ** فاضِل). وَكَذا الحالُ مَعَ المَقولِ –مَثَلاً ثانِياً– حينَ نَقْلِهِ، فَإنَّكَ عِنْدَما تُوَظِّفُ فِعْلَ القَوْلِ (قالَ) في حَديثِكَ إلى شَخْصٍ ما، فَمِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ يُعيرَكَ أُذُنَيْنِ مُصْغِيَتَيْنِ، انْتِظاراً لِما سَيَأْتي بَعْدَ (قالَ)، أوِ انْتِظاراً لِلْقَوْلِ الذي سَتَنْقُلُهُ لَه، وَمِنْ هُنا شاعَ الإتْيانُ بِـ(إنَّ) في (**قالَ إنَّهُ**...). وَلا أرى ثَمَّ بَأْساً في أنْ يُقالَ في تَوْصيفِ (إنَّ) حَسْبَ هذا: إنَّها **أداةٌ لِلنَّقْلِ**، لِنَقْلِ الخَبَر، أوْ نَقْلِ الجَواب، أوْ نَقْلِ السَّبَبِ أوِ التَّعْليل، أوْ نَقْلِ القَوْلِ أوِ المَقول، أوْ نَقْلِ الرَّأْي... وَسَنورِدُ، قَريباً، تَفْصيلَ القَوْلِ في كُلِّ واحِدَةٍ.

وَمِمّا يُشيرُ بِقُوَّةٍ إلى أنَّها لِلْخَبَرِ وَالإخْبارِ –مِثالاً نَضْرِبُهُ–، أنَّ رُسُلَ اللهِ المَلائِكَةَ الذينَ جاؤوا سَيِّدَنا إبْراهيمَ بِالبُشْرى، نَقَلوا لَهُ –غَيْرَ البُشْرى– **خَبَراً** مفادُهُ أنَّهُمْ سَيُهْلِكونَ أهْلَ القَرْيَةِ التي فيها لوطٌ –عَلَيْهِ السَّلام–، وَقَدْ كانَ ذلِكَ

بوَساطَةِ (إنَّ): ﴿ولَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهيمَ بالبُشْرى قالوا إنّا مُهْلِكوا أهْلِ هذِهِ القَرْيَةِ﴾[١]. فَما كانَ مِنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- إلا أنْ سارَعَ إلى إخْبارِهِمْ بوُجودِ لوطٍ في القَرْيَةِ، مُسْتَخْدِماً (إنَّ) أوَّلَ كَلامِهِ كَذلك: قالَ: ﴿إنَّ فيها لوطاً﴾[٢]. وَالدَّليلُ عَلى أنَّ (إنَّ) للإخْبارِ هُنا أنَّ المَلائِكَةَ -عَلَيْهِمْ سَلامُ اللهِ- رَدّوا عَلى إخْبارِ الخَليلِ لَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أعْلَمُ بِمَنْ فيها﴾[٣].

ولَكِنَّ المَلْحوظَ أنَّ المَلائِكَةَ -رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- لَمْ يَفْعَلوا في قَوْلِهِمُ الأخيرِ ما فَعَلَهُ الخَليلُ في قَوْلِه، فَلَمْ يَأْتوا بِـ(إنَّ)، مَعَ أنَّ قَوْلَهُمْ يُمَثِّلُ -لا جَرَمَ- جَواباً أوْ خَبَراً يَنْتَظِرُهُ إبْراهيم، خاصَّةً أنَّهُمْ أوْرَدوا قَوْلَهُمْ بَعْدَ أنْ أخْبَرَهُمْ إبْراهيمُ بأنَّ لوطاً في القَرْيَةِ التي سَيُهْلِكونَها. أقولُ: ثَمَّ فَرْقٌ بَيْنَ الإخْبارَيْن: إخْبارِ إبْراهيمَ المَلائِكَةَ في قَوْلِه: ﴿إنَّ فيها لوطاً﴾، وَإخْبارِ المَلائِكَةِ إبْراهيمَ في قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أعْلَمُ بِمَنْ فيها﴾. فَإبْراهيمُ الخَليلُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم- قَدْ طَغى عَلَيْهِ الجانِبُ البَشَريُّ في هذا المَوْقِف، فَاضْطَرَبَ أوْ خافَ كَثيراً لَمّا أنْ سَمِعَ عَنْ إهْلاكِ المَلائِكَةِ القَرْيَةَ التي فيها لوط، وَهُوَ ابْنُ أخي إبْراهيم فيما قيلَ[٤]، إضافَةً إلى كَوْنِهِ نَبِيّاً مِنْ أنْبياءِ الله. فَأدّى اضْطِرابُهُ أوْ خَوْفُهُ الشَّديدُ عَلى نَبِيِّ اللهِ ابْنِ أخيهِ إلى التَّسَرُّعِ وَالنِّسْيان، نِسْيانِ أنَّ المَلائِكَةَ إنَّما هُمْ أعْلَمُ مِنْهُ، فَما كانَ مِنْهُ إلا أنْ قَدَّمَ لَهُمْ خَبَراً هُمْ أعْلَمُ مِنْهُ فيه، لأنَّهُمْ مَبْعوثونَ إلَيْهِ مِنَ اللهِ[٥]. فَمَجيءُ (إنَّ) في قَوْلِ الخَليلِ: ﴿إنَّ فيها لوطاً﴾ مَبْنِيٌّ عَلى ظَنٍّ مِنْهُ -في تِلْكَ اللحْظَةِ العَصيبَة- بِأنَّهُ يُقَدِّمُ لَهُمْ خَبَراً جَديداً.

وَأمّا الأمْرُ مِنْ جانِبِ المَلائِكَةِ فَمُخْتَلِف، إذْ لا تَطْرَأُ عَلَيْهِمْ ما يَطْرَأُ عَلى النَّفْسِ البشَريَّة، فَلا يَعْرِضُ لَهُمْ -بِما جُبِلوا عَلَيْهِ وَما رُكِّبَ فيهِمْ- عارِضُ النِّسْيان أوْ نَحْوِه. فَمِنْ هُنا، لَمْ يَأْتوا بِـ(إنَّ) في قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أعْلَمُ بِمَنْ فيها﴾، لأنَّهُمْ مُسْتَيْقِنونَ بِأنَّ هذا لا يَشْتَمِلُ عَلى أيِّ جَديدٍ لِلْمُتَلَقّي، وَهُوَ خَليلُ اللهِ إبْراهيم. فَلا شَكَّ أنَّهُمْ يَعْلَمونَ أنَّهُ يَعْلَمُ أنَّهُمْ أعْلَمُ مِنْهُ بِمَنْ في القَرْيَة، لأنَّ اللهَ -جَلَّ جَلالُه وَعَزَّ جَمالُه- هُوَ مَنْ أرْسَلَهُمْ إلَيْه. أُلَخِّصُ بِالقَوْل: كَلامُ المَلائِكَةِ وَإنْ عُدَّ خَبَراً يَنْتَظِرُهُ إبْراهيم، إلا أنَّهُ خَبَرٌ لا يَحْوي أيَّ جَديدٍ بِالنِّسْبَةِ لَه -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام-.

وَتالياً نَذْكُرُ بَعْضَ المُؤَشِّراتِ وَالمَواقِعِ التي يَصِحُّ عَدُّها مُرَجِّحاتٍ لِلْقَوْلِ بِأنَّ (إنَّ) لِلإخْبارِ في العَرَبِيَّة:

القاعِدَةُ قارَّةٌ في لاوَعْيِ النّاطِقِ بِالعَرَبِيَّةِ، وَيَعيها عَمَلِيّاً:

إنَّني لأزْعُمُ عالِياً، بِأنَّ النّاطِقَ بِالعَرَبِيَّةِ المُعاصِرَ يُدْرِكُ واعِياً وَلاواعِياً، بِحِسٍّ لُغَوِيٍّ مُرْهَفٍ، الوَظيفَةَ اللغَوِيَّةَ الحَقيقِيَّةَ التي لِلأداةِ (إنَّ)، وَهِيَ الوَظيفَةُ المُدَّعاةُ هُنا التي يَتَبَنّاها البَحْثُ الحالِيّ. أمّا إدْراكُهُ اللاواعي فَلَقَدْ يَتَجَلّى في الاسْتِعْمالِ اللغَوِيِّ المائِلِ في النُّصوصِ اللغَوِيَّةِ العَمَلِيَّةِ التي أنْتَجَها وَيُنْتِجُها ذلكَ النّاطِق. وَأمّا إدْراكُهُ الواعي فَيَسْتَعْلي مِنْ خِلالِ العِبارَةِ الشَّهيرَةِ التي يَسْتَمْسِكُ بِها عامَّةُ النّاسِ في كَثيرٍ مِنْ بِلادِ العَرَبِ قائِلينَ: (فيهْ "إنَّ")، أوْ: (فيهْ "إنَّ" في المَوْضوع)، أوْ: (فيهْ في المَوْضوع "إنَّ")، أوْ: (الحِكايَة فيها "إنَّ")، أوْ: (فيهْ في الأمر "إنَّ").

---

(١) **العَنْكَبوت** ٢٩ : ٣١. وَ(إنَّ) التي في تَكْمِلَةِ الآيَةِ إنَّما هِيَ لِلتَّعْليل: ﴿ ولَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهيمَ بِالبُشْرى قالوا إنّا مُهْلِكوا أهْلِ هذِهِ القَرْيَةِ إنَّ أهْلَها كانوا ظالِمين﴾، وَالتَّقْدير: "إنّا مُهْلِكوا أهْلِ هذِهِ القَرْيَةِ لأنَّ أهْلَها كانوا ظالِمين".

(٢) **العَنْكَبوت** ٢٩ : ٣٢.

(٣) **العَنْكَبوت** ٢٩ : ٣٢.

(٤) انظر: عبد الوهّاب النَّجّار، **قصص الأنبياء**: ص٧٧.

(٥) لا يَظُنَّنَّ ظانٌّ بِأنَّ هذا الذي نَقولُهُ غَريبٌ في حَقِّ النُّبُوَّة. فَقَدْ عَرَضَ شَيْءٌ مِنْهُ لِنَبِيِّ اللهِ زَكَريّا -عَلَيْهِ السَّلام-، عِنْدَما بَشَّرَتْهُ المَلائِكَةُ بِيَحْيى -عَلَيْهِ السَّلام-. فَقَدْ تَعَجَّبَ زَكَريّا مِنْ هذِهِ البِشارَةِ تَعَجُّباً شَديداً مَخْلوطاً بِسَعادَةٍ غامِرَة، الأمْرُ الذي دَفَعَهُ إلى أنْ يَنْسى لَحْظَةً فَيَسْأَلَ اللهَ -تَقَدَّسَ- عَنْ كَيْفِيَّةِ حُدوثِ هذا، مَعَ عِلْمِ زَكَريّا بِأنَّ اللهَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْء، وَهُوَ مُسَبِّبُ الأسْباب، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قدير: ﴿قالَ رَبِّ أنّى يَكونُ لي غُلامٌ وكانَتِ امْرَأتي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّا﴾ (مَرْيَم ١٩ : ٨).

وَهُمْ إنَّما يَقْصِدونَ بِذلِكَ كُلِّهِ أنَّ القَدْرَ الذي وَصلَهُمْ مِنَ الأمْرِ أو الحَدَثِ أو الخَبَرِ الذي سَمِعوهُ أوْ عَلِموهُ، مُفارِقٌ لِلمَنْطِقِ، أوْ لا يُشَكِّلُ -بِصورَتِهِ التي عَلَيْها وَرَدَ- مَنْطِقاً مُتَسَلْسِلاً لِما حَدَثَ، وَهُوَ غَيْرُ كافٍ لِلتَّفْسيرِ وَالتَّعْليلِ. بِطَريقَةٍ أُخْرى: إنَّهُمْ يَعْنونَ أنَّ الأمْرَ قد أُخفِيَ فيهِ سِرٌّ فَانْطَوى عَلى خَبَرٍ يَنْتَظِرُ القائِلُ مَعْرِفَتَهُ، أوْ أنَّهُ يَنْطَوي -عَلى سَبيلِ الحَتْمِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ قائِلِ تِلْكَ العِبارَةِ- عَلى سِرٍّ ما، أوْ جُزْءٍ مِنَ الخَبَرِ لَمْ يَصِلْ إلَيْهِمْ لِسَبَبٍ مِنَ الأسْباب. أفَيُمْكِنُ بَعْدَ ذاكَ أنْ يُقالَ لِهذا النّاطِقِ بِالعَرَبِيَّةِ: إنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيد، وَهُوَ الذي يَقولُ -فاهِماً الوَظيفَةَ الحَقيقِيَّةَ لِـ(إنَّ)-: (الحِكايَة فيها "إنَّ")؟! إنَّ اِسْتِعْمالَهُ (إنَّ) في عِبارَتِهِ المَرْصودَةِ المَذْكورَةِ أبْعَدُ ما يَكونُ عَنِ التَّوْكيدِ أوْ أيِّ شَيْءٍ يُلامِسُ التَّوْكيدَ أوْ يُشْبِهُهُ!

وَلِذلِكَ أقولُ: إنَّ هُناكَ ظاهِرَةً غَريبَةً، بَلْ نادِرَةً، تَمْثُلُ في تِلْكَ المُفارَقَةِ الواقِعَةِ بَيْنَ قاعِدَةِ النُّحاةِ القائِلَةِ بِأنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ، وَما نَجِدُهُ في الاسْتِعْمالِ اللغَويِّ الواعي وَاللاواعي لَدى النّاطِقِ بِالعَرَبِيَّةِ. فَمِنَ الواضِحِ أنَّ النّاطِقَ بِالعَرَبِيَّةِ لَمْ تُقْنِعْهُ قاعِدَةُ النُّحاةِ التي تَقولُ بِأنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ، فَتَعَدّاها وَأخَذَ يَسْتَعْمِلُ (إنَّ) وَيُوَظِّفُها عَلى نَحْوٍ مُباينٍ لِلْقاعِدَةِ مُفارِقٍ إيّاها. فَقَدْ عَرَفَ أنَّ (إنَّ) لا تَكونُ إلا لِلْخَبَرِ وَالإخْبارِ، أوْ لا تَأْتي إلا لِتَقْديمِ المَعْلومَةِ المَخْفِيَّةِ عَنِ السّامِعِ الذي يَنْتَظِرُ سَماعَ تِلْكَ المَعْلومَةِ أوْ ذلِكَ الخَبَر.

أقولُ: إنَّها ظاهِرَةٌ لا أكادُ أعْثُرُ لَها عَلى مَثيلٍ في أيٍّ مِنْ أبْوابِ النَّحْوِ الأُخْرى. ذلِكَ أنَّ النّاطِقَ بِالعَرَبِيَّةِ فَهِمَ الوَظيفَةَ الحَقيقِيَّةَ لِـ(إنَّ)، كَما هِيَ في النُّصوصِ المُخْتَلِفَةِ، وَلَمْ يُغادِرْها إلى فَهْمِ النُّحاةِ الذّاهِبِ إلى أنَّ (إنَّ) لِلتَّوْكيدِ. هذا يَعْني بِأنَّ قاعِدَةَ النُّحاةِ لَمْ تُفْلِحْ في حَرْفِ النّاطِقِ بِالعَرَبِيَّةِ عَنْ فَهْمِهِ الضِّمْنِيِّ الصَّحيحِ ذاكَ، إلى الآخَرِ غَيْرِ الصَّحيحِ: "(إنَّ) لِلتَّوْكيدِ".

مَجيءُ (إنَّ) بَعْدَ أَلْفاظِ الذِّكْرِ وَالإخْبارِ وَالإنْباءِ وَنَحْوِها أوْ ما يُفيدُ مَعْناها:

مِنَ المَلْحوظِ دونَ عَناءٍ وُرودُ (إنَّ) في سِياقٍ إخْباريٍّ يَحْوي طَرَفاً مُخْبِراً وَآخَرَ مُخْبَراً وَخَبَراً حَمَلَهُ الأوَّلُ لِلثّاني. وَيَكْثُرُ دَوَرانُ هذا في صُحْبَةِ أَلْفاظٍ دالَّةٍ عَلى عَمَلِيَّةِ الإخْبارِ هذِهِ، كَـ: (نَبَأ، أذْكُرْ). ولعلَّ مِنْ خيرِ ما يُمْكِنُ الاستشهادُ بِهِ في هذا السياق قولَ المولى -تباركَ-: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعيدٍ فَقالَ أَحَطتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ **بِنَبَإٍ يَقينٍ**. **إِنّي** وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظيمٌ﴾[1].

البَيِّنُ هُنا أنَّ الهُدْهُدَ لَمّا تَوَعَّدَهُ سُلَيْمانُ -عَلَيْهِ السَّلام- بِالتَّعْذيبِ أوِ الذَّبْحِ أوِ الإتْيانِ بِسُلْطانٍ مُبين، كانَ عَلَيْهِ لِزاماً أنْ يَفْتَدِيَ نَفْسَه، فَما كانَ مِنَ الهُدْهُدِ إلا أنْ جاءَ سُلَيْمانَ -عَلَيْهِ السَّلام- وَقالَ لَهُ قاصِداً إلى شَدِّ نَظَرِهِ وَجَذْبِ انْتِباهِهِ: ﴿أحطتُ بما لم تُحِطْ بِهِ وجئتُكَ مِنْ سبأٍ **بنبأٍ يقين**﴾. وَلا شَكَّ أنَّ سُلَيْمانَ بَعْدَ مَقولَةِ الهُدْهُدِ هذِهِ أَلْقى السَّمْعَ مُتَشَوِّقاً لِمَعْرِفَةِ هذا النَّبَأ اليَقين، خاصَّةً أنَّ الهُدْهُدَ لَمْ يَقُلْ: "وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِخَبَرٍ يَقين"، بَلْ: ﴿بِنَبَأٍ يَقين﴾. وَمَعْروفٌ أنَّ النَّبَأَ أكْثَرُ أهَمِّيَّةً مِنَ الخَبَرِ، وَمِنْها كَلِمَةُ "النَّبِيّ". أقولُ: بَعْدَ مَقالَةِ الهُدْهُدِ المَوْصوفَةِ، وَبَعْدَ أنْ تَأكَّدَ الهُدْهُدُ مِنْ أنَّ المُتَلَقّي، وَهُوَ النَّبِيُّ الكَريمُ سُلَيْمان، قَدْ أصْبَحَ مُنْتَظِراً الخَبَرَ اليَقينَ الذي يَحْمِلُهُ لَهُ، اسْتَخْدَمَ الأداةَ (إنَّ)، فَقالَ: ﴿**إِنّي** وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ...﴾[2].

---

(١) **النّمل** ٢٧ : ٢٢ - ٢٣.

(٢) الحظْ أنَّ الهدهدَ قالَ: ﴿إنّي وجدتُ امرأةً تملِكُهم﴾، ولم يَقُلْ: (إنَّ امرأةً تملِكُهُمْ)، وذلك -واللهُ أعلَمُ- لأنَّ الهدهد مشغولٌ بأمرِ نفسِهِ، فمن همِّهِ أنْ ينجوَ بنفسِهِ من العذاب.

وَمِنْهُ بِوُضوحٍ: ﴿نَتْلو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ موسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنون﴾[١]. وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ حالَ القَوْمِ المُؤْمِنينَ المَقْصودينَ بِالخِطابِ هُنا، حينَما تَطْرُقُ أَسْماعَهُمْ هذهِ الآيَةُ العَزيزَةُ. إِذْ هِيَ مُنْطَوِيَةٌ عَلى ما يَدْفَعُهُمْ دَفْعاً إِلى الانْتِظارِ بِفارِغِ الصَّبْرِ لِسَماعِ نَبَأِ موسى وَفِرْعَونَ الذي سَيُتْلى عَلَيْهِمْ. وَمِنْ هُنا تَأْتي الآيَةُ التّالِيَةُ مُباشَرَةً عَلى ذِكْرِ مَضْمونِ هذا النَّبَأِ مُصَدَّراً بِـ(إِنَّ): ﴿إِنَّ فِرْعونَ علا في الأَرضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيي نِساءَهُمْ﴾[٢].

وَمِمّا لا خَفاءَ في عَلاقَتِهِ بِهذا الذي نَقول، قَوْلُ مَوْلانا -تَعالى-: ﴿وَاذْكُرْ في الكِتابِ إِبْراهيمَ. إِنَّهُ كانَ صِدّيقاً نَبِيّاً﴾ [٣]. فَإِنَّ الذي يَسْمَعُ ﴿وَاذْكُرْ في الكِتابِ إِبْراهيمَ﴾ سَتَؤولُ حالُهُ إِلى الإِنْصاتِ انْتِظاراً لِمَعْرِفَةِ خَبَرِ إِبْراهيم، فَتَأْتيهِ جُمْلَةُ الخَبَرِ الذي يَنْتَظِرُهُ مَبْدوءَةً بِـ(إِنَّ): ﴿إِنَّهُ كانَ صِدّيقاً نَبِيّاً﴾. وَمِثْلُ هذا يَرِدُ كَثيراً في القُرْآنِ المَجيد:

- ﴿واذكر في الكتابِ موسى. إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وكانَ رَسولاً نَبِيّاً﴾ [٤].
- ﴿وَاذْكُرْ في الكِتابِ إِبْراهيمَ إِنَّهُ كانَ صِدّيقاً نَبِيّاً﴾[٥].
- ﴿وَاذْكُرْ في الكِتابِ موسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وكانَ رَسولاً نَبِيّاً﴾[٦].
- ﴿وَاذْكُرْ في الكِتابِ إِسْماعيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ﴾[٧].
- ﴿وَاذْكُرْ في الكِتابِ إِدْريسَ إِنَّهُ كانَ صِدّيقاً نَبِيّاً﴾[٨].
- ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داودَ ذا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوّاب (١٧) إِنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْراق﴾[٩]. وَالْحَظْ هُنا -رَعاكَ اللهُ- أَنَّ الحَقَّ قَدْ كَرَّرَ (إِنَّ) مَرَّتَيْنِ، لأَنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مِنَ الجُمْلَتَيْنِ تُمَثِّلُ خَبَراً جَديداً مُنْتَظَراً، أَوْ مَعْلومَةً عَنْ داودَ لَمْ يَكُنِ السّامِعُ يَعْلَمُها: (١) إِنَّهُ أَوّاب. (٢) إِنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْراق.

وَيَدْخُلُ في هذا البابِ قَوْلُهُ: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرا (٨٣) إِنّا مَكَّنّا لَهُ في الأَرْضِ...﴾[١٠]. وَالطَّريفُ الذي قَدْ يُصَدِّقُ الدَّعْوى المُتَبَنّاةَ حَوْلَ (إِنَّ)، أَنَّ الآياتِ التي حَوَتِ المَسائِلَ التي سُئِلَها الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَجاءَتْ بِلَفْظِ (يَسْأَلونَكَ) بَلَغَتْ خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً، لَمْ تُتْبَعْ أَيٌّ مِنْها بِـ(إِنَّ) إِلا آيَةَ الكَهْفِ هذِه، لأَنَّها وَحْدَها اشْتَمَلَتْ عَلى لَفْظِ الذِّكْرِ، وَأَمَرَتِ الرَّسولَ بِأَنْ يُخْبِرَ السّائِلينَ عَنْ ذي القَرْنَيْنِ بِأَنْ يَنْتَظِروا الخَبَرَ وَالجَوابَ عَلى ما سَأَلوا وَطَلَبوا: ﴿سَأَتْلو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرا﴾.

---

(١) القَصَص ٢٨ : ٣.
(٢) القَصَص ٢٨ : ٤.
(٣) مَرْيَم ١٩ : ٤١.
(٤) مَرْيَم ١٩ : ٥١.
(٥) مَرْيَم ١٩ : ٤١.
(٦) مَرْيَم ١٩ : ٥١.
(٧) مَرْيَم ١٩ : ٥٤.
(٨) مَرْيَم ١٩ : ٥٦.
(٩) ص ٣٨ : ١٧ – ١٨.
(١٠) الكَهْف ١٨ : ٨٣ – ٨٤.

قارِنْ آيَةَ الكَهْفِ هذِهِ بما يَلي –أَمْثالاً–: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ لِلنّاسِ وَالحَجِّ﴾[1]، وَ: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فيهِما إِثْمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَيَسْأَلونَكَ ماذا يُنْفِقونَ قُلِ العَفْوَ﴾[2]، وَ: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي﴾[3]. فَلَمْ يُؤْمَرْ أَحَدٌ في أَيٍّ مِنْ هذِهِ الآياتِ، وَلا في الأُخْرَيات، بِأَنْ يَنْتَظِرَ الخَبَرَ أَوِ الإِخْبارَ، فَلَمْ تورَدْ –مِنْ ثَمَّ– (إِنَّ) فيها.

كَما قَدْ يَتَّفِقُ لَنا أَنْ نَقَعَ عَلى نَحْوٍ مِنْ هذا، وَلكِنْ مِنْ غَيْرِ الإِتْيانِ بِأَلْفاظِ الذِّكْرِ وَالنَّبَأِ وَنَحْوِهِما، بَلْ يَكونُ الأَمْرُ مَوْكولاً إِلى هَيْئَةٍ مَذْكورَةٍ توحي بِالإِخْبار، أَوِ انْتِظارِ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ لِلْخَبَر. اِقْرَأْ: ﴿فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشي عَلى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبي يَدْعوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾[4]، تَجِدْ

أَنَّ هَيْئَةَ الفَتاةِ وَهِيَ تَمْشي بِاسْتِحْياءٍ مُقْبِلَةً عَلى موسى –عَلَيْهِ السَّلام–، بَعْدَ أَنْ سَقى لَها وَلأُخْتِها، وَغادَرَتا المَكانَ وَانْتَهى المَوْقِف، دَعَتْ موسى –لا شَكَّ– إِلى فُضولِ أَنْ يَنْتَظِرَ مَعْرِفَةَ ما تُريدُهُ البِنْتُ مِنْهُ بَعْدَ عَوْدَتِها إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرى، وَلأَنَّ حالَ موسى هكَذا جاءَتْ (إِنَّ): ﴿إِنَّ أَبي يَدْعوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾.

وَقَدْ أَشارَ إِلى هذا مِنْ قَبْلُ الإِمامُ الجُرْجانِيُّ –أَفاضَ اللهُ عَلَيْهِ فُنونَ مَغْفِرَتِه–، لكِنَّهُ أَطْلَقَ عَلَيْهِ "الجَواب": "ثُمَّ إِنّا إِذا اسْتَقْرَيْنا الكَلامَ وَجَدْنا الأَمْرَ بَيِّناً في الكَثيرِ مِنْ مَواقِعِها أَنَّهُ يُقْصَدُ بِها إِلى الجَواب، كَقَوْلِهِ –تَعالى–: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرا. إِنّا مَكَّنّا لَهُ في الأَرْضِ﴾. وَكَقَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ– في أَوَّلِ السّورَةِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِمْ﴾"[5]. إِلا أَنَّ الإِمامَ حَصَرَهُ فيما "يُعْلَمُ بِأَنَّهُ كَلامٌ أُمِرَ النَّبِيُّ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِأَنْ يُجيبَ بِهِ الكُفّار في بَعْضِ ما جادَلوا وَناظَروا فيه"[6].

مَجيءُ (إِنَّ) أَوَّلَ الخَبَرِ النَّحْوِيّ (خَبَرِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّة):

مِنَ المَعْلومِ أَنَّهُ قَدْ تَقَعُ (إِنَّ)، وَالجُمْلَةُ التي تَتْلوها، خَبَراً لِلْمُبْتَدَأ، كَما في مِثْلِ قَوْلِنا: (زَيْدٌ إِنَّهُ لَصادِقٌ). وَكَما في مِثْلِ قَوْلِهِ –تَعالى شَأْنُهُ–: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنوا وَالذينَ هادوا وَالصّابِئينَ وَالنَّصارى وَالمَجوسَ وَالذينَ أَشْرَكوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ﴾[7]، وَ:﴿إِنَّ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ إِنّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾[8]. وَنَظيرُ هذا قَوْلُ الشّاعِر:[9]

إِنَّ الخَليفَةَ إِنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ سِرْبالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجى الخَواتيمُ

وَهَلْ هُناكَ ما يَدُلُّ عَلى الخَبَرِ أَوِ الإِخْبارِ بِأَكْثَرَ مِمّا يَفْعَلُ الخَبَرُ في الجُمْلَةِ الاسْمِيَّة؟ خاصَّةً أَنَّ في وَقائِعِ الحَياةِ المَعيشَةِ ما يُثْبِتُ أَنَّ أَحَداً مِنَ النّاطِقينَ بِاللغَةِ –أَيِّ لُغَة– لا يُطيقُ صَبْراً عِنْدَما تَأْتي في كَلامِكَ مَعَهُ بِمُبْتَدَأٍ دونَ

---

(١) **البَقَرَة** ٢ : ١٨٩.

(٢) **البَقَرَة** ٢ : ٢١٩.

(٣) **الإسراء** ١٧ : ٨٥.

(٤) **القَصَص** ٢٨ : ٢٥.

(٥) الجُرْجانِيّ، **دَلائِلُ الإِعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**: ص٢٤٩.

(٦) **السّابِق نفسه.**

(٧) **الحَجّ** ٢٢ : ١٧. الشّاهِدُ في الآيَةِ –طَبْعاً– مَجيءُ (إِنَّ) الثّانِيَة.

(٨) **الكَهْف** ١٨ : ٣٠. الكَلامُ عَلى (إِنَّ) الثّانِيَة بِطَبيعَةِ الحال.

(٩) الرّازِيّ، **التَّفْسيرُ الكَبيرُ أَوْ مَفاتيحُ الغَيْب**: ٢١ / ١٠٤.

خَبَرِهِ. فَأَنْتَ إِنْ قُلْتَ لِصَدِيقٍ: (الامْتِحان...)، ثُمَّ صَمَتَّ، فَإِنَّ مِنَ البَدِيهِيِّ المُتَوَقَّعِ أَنْ يُسارِعَ لِيَسْأَلَكَ نَحْوَ: (ماذا بِهِ؟). فَيَحِقُّ -وَالحالُ هذِهِ- أَنْ تُكْمِلَ جُمْلَتَكَ بِذِكْرِكَ خَبَراً تَبْدَهُهُ (إِنَّ)، وَذلِكَ مِنْ قَبِيلِ: (...إِنَّهُ صَعْب).

وُقوعُ (إِنَّ) في أَجْوِبَةِ القَسَمِ وَالشَّرْطِ وَالسُّؤال:

فَمِنَ الحَقِّ أَنَّ اسْتِعْمالَكَ أَداةَ القَسَمِ وَالمُقْسَمَ بِهِ، كَما في قَوْلِكَ: (وَاللهِ ...)، فيهِ مَدْعاةٌ لِسامِعِكَ أَنْ يَنْتَظِرَ مِنْكَ أَنْ تَأْتِيَ بِتَتِمَّةِ هذا، أَيِ المُقْسَمِ عَلَيْهِ أَو جَوابِ القَسَمِ. وَلأَنَّ الأَمْرَ عَلى هذا النَّحْوِ، أَيْ فيهِ انْتِظار، جيءَ دائِماً بِـ(إِنَّ) أَوَّلَ جَوابِ القَسَمِ: (وَاللهِ إِنَّ خالِداً سَيَتَزَوَّجُ هِنْداً). وَجَوابُ القَسَمِ مَنْظورٌ إِلَيْهِ حَسْبَ هذا بِوَصْفِهِ خَبَراً -بِالمَعْنى اللغَوِيِّ لِلْخَبَرِ لا النَّحْوِيِّ-، لأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلى مَعْلومَةٍ جَدِيدَةٍ لِمَنْ يَنْتَظِرُه.

وَقَدْ أَشارَ الإِمامُ عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانِيُّ -تَوَلّى اللهُ مُكافَأَتَهُ- إِلى ما سَبَقَ، فَقالَ عانِياً (إِنَّ): "فَالذي يَدُلُّ عَلى أَنَّ لَها أَصْلاً في الجَوابِ أَنّا رَأَيْناهُمْ قَدْ أَلْزَموها الجُمْلَةَ مِنَ المُبْتَدَأِ وَالخَبَرِ إِذا كانَتْ جَواباً لِلْقَسَمِ، نَحْوَ: (وَاللهِ إِنَّ زَيْداً مُنْطَلِقٌ). وَامْتَنَعوا مِنْ أَنْ يَقولوا: (وَاللهِ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ)"[1].

وَلا يَخْتَلِفُ هذا الأَمْرُ بِأَيِّ مِقْدارٍ عَنِ الإِتْيانِ بِـ(إِنَّ) صَدْرَ جَوابِ الشَّرْط، فَإِنَّ نُطْقَكَ أَداةَ الشَّرْطِ وَما يَلِيها مِنْ شَرْطٍ، لا شَكَّ سَيُحَرِّكُ في نَفْسِ مَنْ يَسْمَعُكَ فُضولاً لِمَعْرِفَةِ ماذا سَتَكونُ نَتيجَةُ ما اشْتَرَطتَ، فَيَنْتَظِر سَماعَ الخَبَرِ مِنْك. وَمِنْ مَجيئِها واقِعَةً هذا المَوْقِعِ قَوْلُ اللهِ:

- ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابي لَشَديد﴾[2].
- ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرون﴾[3].
- ﴿وَإِنْ أَطَعْتُموهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكون﴾[4].

وَأَحْسَبُ أَنَّ جَوابَ الشَّرْطِ وَجَوابَ القَسَمِ ما سُمِّيا جَواباً إِلا تَشْبيهاً لَهُما بِجَوابِ السُّؤال، فَكُلٌّ يَحْتَوي عَلى مَعْلومَةٍ جَدِيدَةٍ مُتَوَقَّعَةٍ مُنْتَظَرَة. وَإِنَّهُ لَمِنَ السَّهْلِ جِداً رَصْدُ كَثْرَةِ دَوَرانِ (إِنَّ) مُفْتَتَحَ جَوابِ الاسْتِفْهامِ. وَفي هذا الصَّدَدِ أَذْكُرُ أَنَّ أَحَدَ الزُّمَلاءِ عَرَّفَني ذاتَ يَوْمٍ إِلى حَفيدَتِهِ التي لَطالَما حَدَّثَني بِفَخارٍ عَنْ إِجادَتِها العَرَبِيَّةَ الفُصْحى، مَعَ أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَتَجاوَزُ آنَئِذٍ السَّنَواتِ الأَرْبَع. وَتَأَكَّدَتْ لي قُدْرَةُ هذِهِ الطِّفْلَةِ عَلى التِزامِ الفُصْحى التِزاماً لافِتاً لا يَسْتَطيعُهُ أَكْثَرُ طُلابِنا في الجامِعَةِ مِمَّن التَقَيْتُهُمْ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ حَتّى الآن.

وَلكنَّ الشّاهِدَ أَنَّ الطفلةَ كانَت تُجيبُ عنْ أسئلتي بِما يُعَزِّزُ مَذْهَبَنا في البَحْث. فعنْدَما سألْتُها -مَثَلاً-: (لِماذا أَنْتِ في الجامِعَةِ؟) قالَتْ: (إِنَّني مَعَ جَدّي). وعنْدَما سألْتُها: (هَلْ تُحِبّينَ جَدَّكِ؟)، قالَت: (إِنَّني أُحِبُّهُ كَثيراً). وَأَجابَتْ عَنْ سُؤالي: (أَين أُمُّكِ الآنَ؟)، بِقَوْلِها: (إِنَّها في البيت تَطْبُخ)، ... وهكذا. وَقَدْ تَكَرَّرَ الأَمْرُ مع ابنتي الكُبْرى يَوْمَ كانَتْ في السّادِسَة، فَلَمّا أَنْ سَأَلْتُها أُمُّها عَنْ فَحْوى صورَةٍ في الكِتابِ المَدْرَسِيِّ تُمَثِّلُ طَبيباً، قالَتْ: (إِنَّهُ عامِلٌ).

أُريدُ لأُسَأَلَ: إِذا لَمْ تَكُنْ (إِنَّ) لِلإِخْبار، فَلِمَ ابْتَدَأَتِ تانِكَ الطِّفْلَتانِ إِجاباتِهِما مُسْتَخْدِمَتَيْنِ (إِنَّ)، وَهُوَ الأَمْرُ المُتَكَرِّرُ كَثيراً جِداً عِنْدَ غَيْرِهِما مِنَ النّاطِقينَ الرّاشِدين أَيْضاً؟ مِنَ الواضِحِ لي أَنَّ الطِّفْلَتَيْنِ اكْتَسَبَتا اكْتِساباً الوَظيفَةَ الحَقيقِيَّةَ لِلأَداةِ (إِنَّ) في دِلالَتِها عَلى الإِخْبار، بِطَريقَةٍ عَفْوِيَّةٍ حِياديَّةٍ لاواعِيَة، لا تَمُتُّ لِلتَّعَلُّمِ وَالتَّعْليمِ بِأَدْنى صِلَة،

---

(١) الجُرْجانِيّ، **دَلائِلُ الإِعْجازِ في عِلْمِ المَعاني**: ص٢٤٩. وَانْظُرْ: فاضِل صالِح السّامَرّائِيّ، مَعاني النَّحْو: ٢٦٤/١.

(٢) **إبراهيم** ١٤ : ٧.

(٣) **المُؤْمِنون** ٢٣ : ٣٤.

(٤) **الأَنْعام** ٦ : ١٢١.

وَذلكَ مِنَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحى المَسْموعَةِ في بَرامِجِ الأَطْفالِ المُتَلْفَزَة، وَمُسَلْسَلاتِ الرُّسومِ المُتَحَرِّكَة، وَالمَقْروءَة عَبْرَ القِصَصِ وَالحِكايات. وَأَجِلّ ذلكَ نَطْمَئِنُّ لِلْقَوْلِ: إِنَّ تَوْظيفَ الطِّفْلَتَيْنِ لِـ(إِنَّ) في كَلامِهِما مُتَفَلِّتٌ مِنْ سَطْوَةِ قاعِدَةِ النُّحاةِ القائِلَةِ بِأَنَّ (إِنَّ) لِلتَّوْكيدِ. وَمِنْ ناحِيَةٍ ثانِيَةٍ، أَجِدُ في هذا تَعْزيزاً لِما ذَكَرْناهُ خالِياً، مِنْ أَنَّ كَوْنَ (إِنَّ) لِلإِخْبارِ، أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ في لاوَعْيِ النّاطِقِ بِالعَرَبِيَّةِ المُعاصِرَة، مُنْسَرِبٌ إِلَيْهِ بِالاكْتِسابِ الطَّبيعِيِّ عَبْرَ نُصوصِ العَرَبِيَّةِ التي يَتَعَرَّضُ لَها، وَلَيْسَ هُوَ بِالأَمْرِ العارِضِ وَلا بِالادِّعاءِ الباطِلِ.

مَجيءُ (إِنَّ) بَعْدَ (أَلا) وَ(النِّداء) وَ(بَلى) وَ(بَل) وَ(لا بَلْ):

الحَقيقَةُ الماثِلَةُ لي أَنَّ ما نَقولُ بِهِ هُنا، مِنْ مَجيءِ (إِنَّ) لِلإِخْبارِ، يَنْطَبِقُ عَلى كَثيرٍ مِنَ المَواطِنِ التي تُكْسَرُ فيها هَمْزَةُ (إِنَّ). مِنْها مَجيئُها بَعْدَ (أَلا)، وَهِيَ واقِعَةٌ هذا المَوْقِعَ في القُرْآنِ الكَريمِ إِحْدى وَعِشْرينَ مَرَّة. وَمِنَ المَلْحوظِ بِيُسْرٍ أَنَّ (إِنَّ) كانَتْ تَرِدُ بَعْدَ (أَلا) التي لِلتَّنْبيهِ. وَالتَّنْبيهُ لَيْسَ إِلا وَسيلَةً يَسْعى بِها النّاطِقُ اللغَويُّ لِيَسْتَحْوِذَ عَلى اهْتِمامِ المُسْتَمِعِ أَو المُتَلَقّي بِصِفَةٍ عامَّة، وَهَدَفُهُ مِنْ ذلكَ أَنْ يَعِيَ الخَبَرَ الجَديدَ الذي سَيَقولُهُ، أَو الإِسْنادَ الذي سَيَبُثُّهُ، أَو المَعْلومَةَ التي سَيُطْلِقُها. وَلَيْسَ أَنْسَبَ مِنْ (إِنَّ) لِتُؤَدِّيَ هذا الدَّوْر: ﴿أَلا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ. أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحيط﴾[1].

وَأَما النِّداء، فَكَثيراً ما يَرِدُ في القُرآنِ المَجيدِ على هيئةٍ تساعفُ في تبنّي وجهةِ النَّظَرِ التي بها نقولُ، إِذ كثيراً ما تكونُ متواليةُ النداء في القرآن على النَّحو:

عِبارَةُ النِّداءِ (قالَ[2]/المنادي/أَداة النِّداء[3]/المنادى)+(إِنَّ)+فَحْوى النِّداءِ أَوْ مَضْمونه

وَإِيرادُ (إِنَّ) في هذا المَوْطِنِ غَيْرُ خارِجٍ بِالمَرَّةِ عَمّا قيلَ ماضِياً، إِذْ إِنَّ الإِنْسانَ الذي يُنادى، بَعْدَ أَنْ يَسْمَعَ اسْمَهُ، أَوْ بَعْدَ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّهُ مَشْمولٌ بِنِداء الذي نادى، سَيَقومُ بِانْتِظارِ خَبَرٍ يَأْتي بِهِ المُنادي:

- ﴿إِذ قالَت امرأَتُ عمرانَ: رَبِّ، **إِنّي نَذَرْتُ** لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنّي﴾[4].
- ﴿قالت: ربِّ، **إِنّي وضعتُها أُنثى**... وإِنّي سَمَّيتُها مريمَ وإِنّي أُعيذُها بِكَ وذرِّيَّتَها مِن الشيطانِ الرَّجيمِ﴾[5].
- ﴿ونادى نوحٌ ربَّهُ فقالَ: رَبِّ، **إِنَّ ابني مِنْ أَهلي**، وإِنَّ وعدَكَ الحقُّ. قالَ: يا نوحُ، **إِنَّهُ ليسَ مِنْ أَهلِكَ**، إِنَّـهُ عَمَـلٌ غيرُ صالِحٍ، فلا تسئلنِ ما ليسَ لكَ بِهِ علمٌ﴾[6].
- ﴿**يا أَيُّها الإِنْسانُ**، **إِنَّكَ** كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيه﴾[7].
- ﴿قالوا: **يا لوطُ**، **إِنّا** رُسُلُ ربِّكَ﴾[8].

---

(١) **فُصِّلَتْ** ٤١ : ٥٤.

(٢) أَوْ أَيِّ فِعْلٍ يَسُدُّ مَسَدَّه كَـ(نادى-دَعا)، وَعَلى كُلٍّ وُجودُهُ في أُسْلوبِ النِّداء اخْتِياريّ.

(٣) وُجودُها اخْتِياريّ، إِذْ قَدْ يَأْتي أُسْلوبُ النِّداء وَلا أَداةَ فيهِ لِلنِّداء.

(٤) **آل عِمْران** ٣ : ٤٥.

(٥) **آل عِمْران** ٣ : ٣٦.

(٦) **هود** ١١ : ٤٥ – ٤٦.

(٧) **الانشقاق** ٨٤ : ٦.

(٨) **هود** ١١ : ٨١.

- ﴿قالَ: ربِّ، إنّي وَهَنَ العظمُ مِنّي﴾[١].
- ﴿يا زكريّا، إنّا نُبَشِّرُكَ بِغلامٍ اسمُهُ يحيى﴾[٢].
- ﴿يا أَبَتِ، إنّي قد جاءني من العلمِ ما لم يَأتِكَ﴾[٣].
- ﴿فلمّا أتاها نودِيَ: يا موسى، إنّي أنا ربُّكَ﴾[٤].
- ﴿قالا: ربَّنا، إنَّنا نَخافُ أنْ يَفرُطَ علينا أو أنْ يَطغى﴾[٥].
- ﴿فقلنا: يا آدمُ، إنَّ هذا عدوٌّ لكَ ولزوجِكَ فلا يُخرِجنَّكما مِن الجنَّةِ فتشقى﴾[٦].
- ﴿وجاءَ رجلٌ مِنْ أقصا المدينةِ يَسعى قالَ: يا موسى، إنَّ الملأَ يأتمِرون بكَ ليقتلوك﴾[٧].

وَقَدْ سَأَلَ مُذيعٌ في قَناةِ الشّارِقَةِ الفَضائيَّة الدُّكْتور "فاضِل السّامِرّائيّ"، في مَساءِ يَوْمِ الخَميسِ ٢٠٠٩/١/١٥م نَحْوَ السّاعَةِ السّابِعَةِ، السُّؤالَ: "لِمَ قالَ اللهُ: (إنّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ)، ولَمْ يَقُلْ: (أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ)"، فَأجابَ "السّامِرّائيّ" بِما مَعْناهُ أنَّ السَّبَبَ عائدٌ إلى أنَّ المَلِكَةَ هِيَ المَسْؤولَةُ عَنِ المُلْكِ وَشُؤونِ الحُكْمِ، وَهِيَ بِقَولِها (إنّي) تُؤَكِّدُ هذا المَعْنى.

وَالحَقيقَةُ أنَّ هذا أَيْضاً مَشْمولٌ بِما قيلَ آنِفاً. فَهذِهِ المَلِكَةُ فَعَلَتْ ما يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَهُ أيُّ أَحَدٍ آخَر، بِأنْ وَظَّفَت (إنَّ) صَدْرَ كَلامِها، بَعْدَ أنْ نادَتِ المَلأَ: (قالَتْ يا أَيُّها المَلأُ إِنّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ). فَمِنْ غَيْرِ شَكٍّ أنَّها طَلَبَت أوَّلاً إلى المَلأِ الاجتِماعَ، وَهذا وَحْدَهُ قَمينٌ بِالإشارَةِ إلى أنَّ ثَمَّةَ أَمْراً ضَروريّاً بَلْ طارِئاً لأَجْلِهِ استَدْعَتْهُمْ، ثُمَّ نادَتْهُمْ بِقَولِها: (يا أَيُّها المَلأُ)، وَفي هذا أَيْضاً ما يَدْعو المَلأَ أكْثَرَ لأنْ يَكونَ في غايَةِ الفُضولِ وَمُنْتَهى الشَّوْقِ وَالانْتِظارِ لِمَعْرِفَةِ الأَمْرِ الطّارِئِ أو الخَطيرِ أو الجَديدِ الذي بِسَبَبِهِ أُحضِروا وَطُلِبوا للاجتِماع. فَلَمّا كانَتْ هذِهِ هِيَ حالَهُم، اِسْتَعْمَلَت مَلِكَتُهُمْ (إنَّ).

وَثَمَّةَ أَمْرٌ آخَرُ وَرَدَ في القِصَّةِ نَفْسِها تالِياً، يُصَدِّقُ كَثيراً الرَّأيَ الذي نَتَبَنّاهُ في البَحْثِ هُنا. وَذلِكَ أنَّ المَلأَ لَمّا قالَ لِلْمَلِكَةِ: ﴿قالوا نَحْنُ أولوا قُوَّةٍ وَأولوا بَأسٍ شَديد﴾، لَمْ يَستَعْمِلْ (إنَّ)، فَلَمْ يَقُل المَلأُ: (إنّنا/إنّا أولوا قُوَّةٍ وَأولوا بَأسٍ شَديد)، لأنَّ حَقيقَةَ كَوْنِهِمْ أولي قُوَّةٍ وَبَأسٍ شَديد لا تُمَثِّلُ -بِالتَّأكيدِ- مَعْلومَةً جَديدَةً لِمَلِكَتِهِم القائِمَةِ عَلى أُمورِ الحُكْمِ وَالدَّوْلَةِ. بَيْدَ أنَّ المَلِكَةَ نَفْسَها في الآيَتَيْنِ التّالِيَتَيْنِ استَخْدَمَت (إنَّ) عَلى رَأسِ كُلِّ آيَة، وَما هذا إلا لأنَّها قَدَّمَتْ -في كُلِّ آيَةٍ مِنَ الآيَتَيْنِ- خَبَراً جَديداً لِلْمَلأِ الذينَ يَنْتَظِرونَ أَمْرَها وَقَرارَها في العَلاقَةِ مَعَ سُلَيْمانَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام-، خاصَّةً أنَّهُمْ كانوا يَنْتَظِرونَ أنْ يَسْمَعوا مِنْها قَرارَها بَعْدَ أنْ رَفَعوا الأَمْرَ إِلَيْها وَحَدَها ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُري ماذا تَأمُرين﴾. اِلْحَظْ:

- ﴿قالَتْ إِنَّ المُلوكَ إذا دَخَلوا قَرْيَةً أَفْسَدوها وَجَعَلوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّة وَكَذلِكَ يَفْعَلون﴾[٨].

---

(١) مَرْيَم ١٩ : ٤.
(٢) مَرْيَم ١٩ : ٧.
(٣) مَرْيَم ١٩ : ٤٣.
(٤) طه ٢٠ : ١١ – ١٢.
(٥) طه ٢٠ : ٤٥.
(٦) طه ٢٠ : ١١٧.
(٧) القَصَص ٢٨ : ٢٠.
(٨) النَّمل ٢٧ : ٣٤.

- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلون﴾[1].

وَمِنَ المُلاحَظِ أَنَّ (إِنَّ) تَجيءُ بَعْدَ الأَداةِ (بَلى) كَذلِكَ التي هِيَ **حَرْفُ جَوابٍ**، وَتَخْتَصُّ (بَلى) بِالنَّفْيِ، وَتَعْمَلُ عَلى إِبْطالِهِ[2]، لِيُؤْتى تالِياً بِبَديلٍ يَحِلُّ مَحَلَّ المُبْطَلِ وَيَسْتَوْطِنُ مَوْطِنَهُ. فالنّاطِقُ اللغَوِيُّ العَرَبِيُّ ما إِنْ يَسْمَعْ (بَلــى)، حَتّى يَتَوَقَّعَ ما يَلِيها وَيَنْتَظِرَه. وَلَعَلَّ هذا يُفَسِّرُ ما يَحْدُثُ عادَةً مِنْ عَدَمِ الاكْتِفاءِ بِـ(بَلى) في بَعْضِ آياتِ التَّنْزيلِ العَزيز، حَيْثُ يَتِمُّ بَعْدَ (بَلى) تَقْديمُ مَعْلومَةٍ إِضافِيَّةٍ تَزيدُ عَلى ما جاءَ سابِقاً لَها. وَهُوَ ما نَجِدُهُ ماثِلاً في عِدَّةِ آياتٍ كَريمَة:

- ﴿زَعَمَ الَّذينَ كَفَروا أَنْ لَنْ يُبْعَثوا قُلْ **بَلى وَرَبّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلى اللهِ يَسير**﴾[3].

- ﴿أَمْ يَحْسَبونَ أَنّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ، **بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبون**﴾[4].
- ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ، **بَلى قادِرينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ**﴾[5].
- ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ. قالوا: **بَلى قَدْ جاءَنا نَذيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا في ضَلالٍ كَبير**﴾[6].

أُريدُ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّهُ مِنَ الطَّبيعِيِّ جِداً -وَالحالُ تِلْكُمْ- أَنْ نَجِدَ (بَلى) مُسْتَتْبَعَةً بِـ(إِنَّ)، كَما في قَوْلِ الحَقِّ -تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ-:

- ﴿بَلى إِنَّ اللهَ عَليمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلون﴾[7].
- ﴿بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير﴾[8].
- ﴿بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصيرا﴾[9].

وَإِنَّ مِنْ شِدَّةِ اقْتِرانِ (إِنَّ) بِالإِخْبارِ أَوِ الإِتْيانِ بِالخَبَرِ الجَديدِ -إِضافَةً إِلى ما سَبَق-، أَنَّنا نَجِدُ النّاطِقَ بِالعَرَبِيَّةِ المُعاصِرَةِ يَسْتَحِبُّ كَثيراً إِضافَتَها بَعْدَ أَداةِ الإِضْرابِ (بَلْ). وَلَيْسَ يَخْفى عَلى أَحَدٍ أَنَّ العَرَبِيَّةَ المُعاصِرَةَ تَسْتَحِبُّ (بَلْ إِنَّ) كَثيراً، فَيَكْثُرُ دَوَرانُها عَلى الأَلْسِنَةِ، وَيَكْثُرُ جَرَيانُها عَلى الأَقْلام. وَمَعْكوسُ هذا هُوَ ما عَلَيْهِ العَرَبِيَّةُ الكلاسيكِيَّة، فَالعُثورُ عَلى (بَلْ) أَوْ (لا بَلْ) مَتْلُوَّة بِـ(إِنَّ) في العَرَبِيَّةِ القَديمَةِ، أَمْرٌ عَزيزُ المَطْلَبِ نادِرُ الوُقوعِ. فَلا نَعْثُرُ عَلى هذِهِ المُتَوالِيَةِ في نَصِّ التَّنْزيلِ العَزيزِ -مَثَلاً-.

وَلا يَتَوَقَّفُ الأَمْرُ عِنْدَ ذلِكُمْ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ يَتَّفِقُ لَنا أَنْ نَقَعَ عَلى (إِنَّ) وَهِيَ حالَّةٌ بِالكامِلِ مَحَلَّ (بَلْ). كَما قَرَأْتُ -مَثَلاً- في تَرْجَمَةِ أَحَدِ الأَفْلامِ الأَمريكِيَّةِ ذاتَ مَرَّةٍ: (هُوَ لَيْسَ رَهينَة. إِنَّهُ ابْنُهُ)، وَهذا يُطابِقُ تَماماً القَوْلَ: (هُوَ لَيْسَ

---

(١) **النَّمل** ٢٧ : ٣٥.
(٢) انظر: ابن هشام، **مُغْني اللبيب عَنْ كُتُبِ الأَعاريب**: ص١٥٣.
(٣) **التَّغابُن** ٦٤ : ٧.
(٤) **الزُّخْرُف** ٤٣ : ٨٠.
(٥) **القِيامَة** ٧٥ : ٣ – ٤.
(٦) **المُلْك** ٦٧ : ٨ – ٩.
(٧) **النَّحل** ١٦ : ٢٨.
(٨) **الأَحْقاف** ٤٦ : ٣٣.
(٩) **الانْشِقاق** ٨٤ : ١٥.

رَهينة. **بَلْ هُوَ** ابْنُهُ). وَقَدْ طالَعَتْنا قَناةُ الجَزيرَةِ الفَضائيَّةُ أواخِرَ الحَرْبِ الإسْرائيليَّةِ عَلى غَزَّةَ، مَطْلِعَ العامِ ٢٠٠٩م، بِمَشاهِدَ تُمَثِّلُ بَعْضَ الآثارِ النّاجِمَةِ عَنْ إلْقاءِ إسْرائيلَ القَنابِلَ المُحَرَّمَةَ دَوْلِيّاً عَلى غَزَّة، وَكانَت القَناةُ تُتْبِعُ تِلْكَ المَشاهِدَ بِقَوْلٍ مَكْتوب: (لَيْسَتْ بِأَلْعابٍ ناريَّة. **إنَّها** قَنابِلُ لِحَرْقِ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْها). وَلا شَكَّ في أَنَّ هذِهِ عِدْلُ قَوْلِك: (لَيْسَتْ بِأَلْعابٍ ناريَّة. **بَلْ** قَنابِلُ لِحَرْقِ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْها).

وَبَعْدُ، فَإِنْ نَحْنُ عَطَفْنا الكَلامَ عَلى أَوَّلِهِ، وَرَجَعْنا تارَةً أُخْرى إلى واقِعَةِ رُكوبِ "الكِنْدِيِّ" إلى "أَبي العَبّاس"، لِنُنْعِمَ النَّظَرَ في القِسْمِ الثّانِي مِنْها، الذي يُمَثِّلُ رَدَّ أَبي العَبّاسِ عَلى الكِنْدِيّ، وَجَدْنا الآتي: "...فَقالَ أَبو العَبّاس: بَلِ المَعاني مُخْتَلِفَةٌ لاخْتِلافِ الأَلْفاظ. فَقَوْلُهُمْ: (عَبْدُ اللهِ قائِمٌ) إخْبارٌ عَنْ قِيامِه، وَقَوْلُهُمْ: (**إنَّ** عَبْدَ اللهِ قائِمٌ) **جَوابٌ عَنْ سُؤالِ سائِل**، وَقَوْلُهُمْ: (**إنَّ** عَبْدَ اللهِ لَقائِمٌ) جَوابٌ عَنْ إنْكارِ مُنْكِرٍ قِيامَه، فَقَدْ تَكَرَّرَتِ الأَلْفاظُ لِتَكَرُّرِ المَعاني". خَرَجْنا بِالآتي:

أ. لَمْ نَجِد "أَبا العَبّاس" نَفْسَهُ في إجابَتِهِ عَنْ مَسْأَلَةِ "الكِنْدِيِّ" يَذْكُرُ أَيَّ شَيْءٍ لَهُ أَيُّ عَلاقَةٍ بِدِلالَةِ (إنَّ) عَلى التَّوْكيد. وَهذا مِنَ الصَّعْبِ جِدّاً أَنْ نَتَجاوَزَهُ.

ب. يُثْبِتُ كَلامُ "أَبي العَبّاسِ" صِدْقَ دَعْوى الباحِثِ الحالِيِّ، مِنْ كَوْنِ (إنَّ) لِلْجَوابِ أَوِ الإخْبار. فَقَدْ قالَ في جُمْلَةِ (عَبْدُ اللهِ قائِمٌ): "إخْبارٌ عَنْ قِيامِهِ"، وَقالَ في: (إنَّ عَبْدَ اللهِ قائِمٌ): "**جَوابٌ** عَنْ سُؤالِ سائِل"، وَقالَ في: (إنَّ عَبْدَ اللهِ لَقائِمٌ): "**جَوابٌ** عَنْ إنْكارِ مُنْكِرٍ قِيامه". وَلا شَكَّ أَنَّ (إنَّ) –حَسْبَ كَلامِ "أَبي العَبّاسِ"– هِيَ التي أَضافَت الدَّلالَةَ عَلى **الجَواب** في جُمْلَةِ (إنَّ عَبْدَ اللهِ لَقائِمٌ)، لأَنَّ (عَبْدُ اللهِ قائِمٌ) تَخْلو مِنْ (إنَّ) وَهِيَ لا تُشيرُ إلى الجَواب. ثُمَّ إنَّهُ حَتّى بَعْدَ دُخولِ اللامِ في (إنَّ عَبْدَ اللهِ لَقائِمٌ) أَبقى "أَبو العَبّاسِ" دِلالَةَ **الجَواب** في قَوْلِهِ: "**جَوابٌ** عَنْ إنْكارِ مُنْكِرٍ قِيامه"، وَذلِكَ لأَنَّ (إنَّ) –بِبَساطَةٍ– مُبْقى عَلَيْها في هذا التَّرْكيب.

(إنَّ) وَ(قَدْ)

وَإنَّ مِنْ أَدَلِّ الدَّليلِ عِنْدي عَلى أَنَّ (إنَّ) أَداةٌ لِلْخَبَرِ، وَلَكِنَّهُ خَبَرٌ آتٍ عَلى هَيْئَةٍ مَخْصوصَةٍ: إسْنادٍ **اسْمِيٍّ تامّ (جملة مَبْدوءة باسْم أَوْ ضَمير)**، أَنَّ العَرَبِيَّةَ أَوْجَدَتْ أَداةً مُماثِلَةً تَنْهَضُ بِالوَظيفَةِ نَفْسِها، أَيْ إيصال الخَبَر وَنَقْله، وَلَكِنَّ الخَبَرَ مَعَها أَوْ بَعْدَها إنَّما هُوَ **إسْنادٌ فِعْلِيٌّ تامّ (جملة مَبْدوءة بِفِعْل)**. هذِهِ الأَداةُ هِيَ (قَدْ). وَدِلالَةُ (قَدْ) عَلى الخَبَرِ دِلالَةٌ مُشْتَهِرَةٌ نَصَّ عَلَيْها سادَتُنا العُلَماء، فَقالوا إنَّها لِمَنْ يَنْتَظِرُ الخَبَر: "قالَ الخَليلُ: يُقالُ: "قَدْ فَعَلَ"، لِقَوْمٍ يَنْتَظِرونَ الخَبَر، وَمِنْهُ قَوْلُ المُؤَذِّن: قَدْ قامَتِ الصَّلاةُ، لأَنَّ الجَماعَةَ مُنْتَظِرونَ لِذلِكَ. وَقالَ بَعْضُهُمْ: تَقولُ: "قَدْ رَكِبَ الأَميرُ" لِمَنْ يَنْتَظِرُ رُكوبَهُ. وَفي التَّنْزيل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجادِلُكَ﴾[1]، لأَنَّها كانَتْ تَتَوَقَّعُ إجابَةَ اللهِ –سُبْحانَهُ وَتَعالى– لِدُعائِها"[2].

فَإذا كانَ مِنْ غَيْرِ المَشْكوكِ فيهِ أَنْ تَأْتِيَ (قَدْ) لِمَنْ يَنْتَظِرُ الخَبَر "الفِعْلِيّ"، فَإنَّ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تَسْتَحْدِثَ العَرَبِيَّةُ أَداةً لِلْغَرَضِ نَفْسِهِ، أَيْ نَقْل الخَبَر، وَلَكِنْ تُخَصِّصُها لِلْخَبَرِ المَبْدوءِ بِاسْم. وَلا أَعْجَبَ مِنْ أَنْ يُقالَ في حَقِّ (قَدْ): إنَّها لِلتَّحْقيق! إذْ ما مَعْنى أَنْ تُحَقِّقَ (قَدْ) الفِعْلَ الماضِيَ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ أَصْلاً وَأَصالَةً قَبْلَ دُخولِها عَلَيْه؟ كُلُّ فِعْلٍ ماضٍ لا جَرَمَ مَضى وَتَمَّ وَتَحَقَّقَ وَحَصَلَ وَانْقَضى وَانْتَهى وَزالَ، قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ (قَدْ)، بَلْ دونَ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ

(١) **المُجادَلَة** ٥٨ : ١.

(٢) ابن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**: ص٢٢٨.

(قَدْ). فَلا يُعقَلُ أَنْ تُحقِّقَ (قَدْ) ما هُوَ مُتَحقِّق! وَإذا صَحَّ أَنَّها للتَّحقيق مَعَ الماضي وَهُوَ مُتَحقِّق، فَلِمَ لَمْ تَقْوَ عَلى تَحقيق غَيْرِ المُتَحقِّق، وَهُوَ بِالتَّحقيق أَولى، أَعْني دُخولَها عَلى المُضارِع.

وَإذا كانَ صَواباً أَنَّها للتَّحقيق، فَلِماذا لا تُوَظَّفُ قَبْلَ كُلِّ ماضٍ؟! أَوْ: هَلْ يَصِحُّ استِعْمالُ (قَدْ) قَبْلَ أَيِّ فِعْلٍ ماضٍ مادامَتْ للتَّحقيق؟ أَحْسبُ أَنْ لا. وَأَمارَةُ ذلكَ أَنَّنا نَشْعُرُ عالِياً بِخَطَأٍ ما قامَ بِهِ يَوْماً أَحَدُ طُلابِ العَرَبِيَّةِ مِنَ النّاطِقِينَ بِغَيْرِها، حينَما كَتَبَ مَوْضوعاً عَنْ رِحْلَةِ سَفَرِهِ مِنْ بَلَدِهِ إِلى الأُرْدُنّ، بادِئاً إِيّاهُ بِقَوْلِهِ: "**قَدْ وَصَلْتُ** إِلى الأُرْدُنّ قَبْلَ أُسْبوعَيْن". وَلا يَخْفى عَلى أَحَدٍ أَنَّهُ تَرْكيبٌ مَمْجوج، لَسْنا نُصَوِّبُ مَجيءَ (قَدْ) فيه.

وَلَرُبَّما يَعودُ السَّبَبُ في هذا إِلى أَنَّ الطّالِبَ يَستَعْمِلُ (قَدْ) قَبْلَ ما لا يُمْكِنُ عَدُّهُ خَبَراً. وَاطِّراحُها يُفْضي إِلى تَرْكيبٍ لا مُشْكِلَ فيه: "**وَصَلْتُ** إِلى الأُرْدُنّ قَبْلَ أُسْبوعَيْن". وَهذا يَدْفَعُ إِلى الظَّنِّ بِأَنَّ (قَدْ) لَيْسَتْ تَكونُ لِلتَّحقيق بِأَيِّ مِقْدارٍ، كَما أَنَّ (إِنَّ) لَيْسَتْ لِلتَّوكيد بِأَيِّ مِقْدار. وَنَستَبْدِلُ بِذلكَ أَنْ تَكونَ (قَدْ) لِمَنْ يَنْتَظِرُ الخَبَرَ كَما قالَ ابْنُ هِشام – مَثَلاً–، وَأَنْ تَكونَ (إِنَّ) لِلأَمْرِ عَيْنِه، أَوْ قُلْ إِنَّهُما لِلإِخْبار اخْتِصاراً. وَأَمّا إِذا كانَ المُرادُ مِنَ التَّحقيق إِعْلامَ المُتَلَقّي بِأَنَّ الذي يَدورُ في ذِهْنِهِ وَيَنْتَظِرُ مَعْرِفَةَ خَبَرِهِ قَدْ تَحَقَّقَ، فَلا بَأْس.

وَمِمّا يومِئُ إِلى أَنَّ (قَدْ) لِلْخَبَرِ أَوْ الإِخْبارِ، أَوْ لِمَنْ يَنْتَظِرُ الخَبَرَ، كَثْرَةُ مَجيئِها في أَخْبارِ الحَوادِثِ، كَحَوادِثِ الإِطْفاءِ وَالإِسْعاف وَالإِنْقاذ، أَوْ حَوادِثِ السَّيْرِ وَالحَرائِقِ وَالغَرَقِ وَالسُّقوطِ مِنَ الأَماكِنِ الشّاهِقَةِ وَالمُرْتَفِعَةِ، وَنَحْوِ ذلك. وَيَظْهَرُ أَنَّ حُلولَها يَكْثُرُ قَبْلَ العِباراتِ الدّالَّةِ عَلى النَّتيجَة، أَوْ ما يُشَكِّلُ نَتيجَةً لِلْحادِث. وَمَعْلومٌ أَنَّ أَكْثَرَ ما يهتمّ بِهِ السّامِعُ أَوِ القارِئ، وَأَكْثَرَ ما يَستَحْوِذُ عَلى فِكْرِهِ حينَ تَلَقّيهِ الحادِث، مَعْرِفَةُ نَتيجَتِهِ، وَعلى أَيِّ وَجْهٍ استَقَرّ. مِنْ ذلكَ أَنْ يُقالَ: "وَقَدْ تَسَبَّبَ الحادِثُ في..."، "وَقَدْ أَدَّتِ السُّيولُ إِلى..."، "وَقَدْ نَجَمَ عَنْ ذلكَ وَفاةُ المُواطِن..."، "وَقَدْ نَتَجَ عَنْ ذلكَ جَرْفُ العَديدِ مِنَ المَنازِل"، "وَقَدْ أَسْفَرَ الزِّلْزالُ عَنْ...". إِذْ كثيراً ما نَقْرَأُ النَّسَقَ اللغَويَّ التّالي: "تَمَّ إِخْمادُ حَريقٍ شَبَّ في أَحَدِ المَنازِلِ نَتيجَةَ انْفِجارِ خُرْطومِ الغاز، **وَقَدْ نَتَجَ** عَنِ الحادِثِ إِصابَةُ المَدْعُوَّة ... (٣٩ سَنَة) وَالطِّفْل ... (١٣ سَنَة) بِحُروقٍ في اليَدَيْنِ وَالقَدَمَيْن، **وَقَدْ تَمَّ** نَقْلُهُما إِلى مُسْتَشْفى الجامِعَة".

وَمِمّا قَدْ يُشيرُ إِلى صَوابِ المُقابَلَةِ بَيْنَ وَظيفَةِ كُلٍّ مِنْ (إِنَّ) وَ(قَدْ)، أَنَّهُما قَدْ تَقَعانِ أَحْياناً المَوْقِعَ نَفْسَهُ في بَعْضِ التَّراكيب، فَلَكَ أَنْ تَقولَ: (رغْمَ أَنَّ خالداً فَقيرٌ، **فَقَدْ سافَرَ** إِلى بِلادٍ كَثيرَة)، أَوْ تَقولَ دونَ فَرْق: (رغْمَ أَنَّ خالِداً فَقيرٌ، **فَإِنَّهُ سافَرَ** إِلى بِلادٍ كَثيرَة). وَمِثْلُهُ: (مَعَ أَنَّ خالداً فَقيرٌ، **فَقَدْ سافَرَ** إِلى بِلادٍ كَثيرَة)، وَ(مَعَ أَنَّ خالداً فَقيرٌ، **فَإِنَّهُ سافَرَ** إِلى بِلادٍ كَثيرَة). وَقَوْلُكَ: (دَرَسَ وائِلٌ الطِّبّ، أَمّا عَفيفٌ **فَإِنَّهُ دَرَسَ** الهَنْدَسَةَ الكَهْرَبائِيَّة): لا يَخْتَلِفُ في شَيْءٍ عَنْ قَوْلِكَ: (دَرَسَ وائِلٌ الطِّبّ، أَمّا عَفيفٌ **فَقَدْ دَرَسَ** الهَنْدَسَةَ الكَهْرَبائِيَّة).

وَنَعْثُرُ عَلى (إِنَّ) في جَوابِ القَسَم، كَما تَحِلُّ (قَدْ) في جَوابِ القَسَمِ إِذا أُجيبَ بِماضٍ مُتَصَرِّفٍ مُثْبَت. قارِنْ: (وَاللهِ إِنَّ اللهَ آثَرَكَ عَلَيْنا)، ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا﴾[1]: "عِنْدَما يَسْتَقْبِلُ المُتَلَقّي اللغَويُّ كَلِمَةَ القَسَمِ أَوْ عِبارَتَهُ "تَاللهِ" هُنا، فَإِنَّ شَغَفَهُ لِمَعْرِفَةِ المُقْسَمِ عَلَيْهِ يَكونُ كَبيراً. بِكَلامٍ آخَرَ: إِنَّ النّاطِقَ اللغَويَّ إِذا استَعْمَلَ القَسَمَ وَأَرادَ أَنْ يَأْتِيَ بِالماضي المُتَصَرِّف المُثْبَتِ في جَوابِه، فَإِنَّهُ يُوَظِّفُ (قَدْ) لِعِلْمِهِ أَنَّ المُسْتَمِعَ (أَوِ المُتَلَقّي) يَنْتَظِرُ أَنْ يَعْرِفَ عَلى أَيِّ

(١) **يوسف** ١٢ : ٩١.

شَيْءٍ يُقْسِم"[١]. وقالَ "ابْنُ هِشام" مُسَوِّياً بَيْنَهُما: "(قَدْ) في الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ المُجابِ بِها القَسَمُ مِثْلُ (إنَّ) في الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ المُجابِ بِها في إفادَةِ التَّوْكيد"[٢].

ولَعَلَّ مِنَ المُفيدِ الإشارَةَ إلى أنَّ النُّحاةَ القُدامى أنْفُسَهُم قَدْ يَكونونَ أدْرَكوا الصِّلَةَ بَيْنَ (إنَّ) وَ(قَدْ)، ذلكَ أنَّهُم اتَّخَذوا للأداتَيْنِ مُصْطَلَحَيْنِ يَبْدُوانِ مُتَقارِبَيْنِ أوْ مُتَطابِقَيْنِ مِنْ حَيْثُ المَفْهومُ: "التَّوْكيد" للأولى، وَ"التَّحْقيق" للثّانِيَة. بَلْ إنَّ "أبا البَقاءِ الكَفَوِيَّ" يَتَكَلَّمُ عَلى (إنَّ) بِحُسْبانِهِ حَرْفَ تَحْقيق[٣]، وَفي هذا بَعْضُ تَسْوِيَةٍ بَيْنَ (إنَّ) وَ(قَدْ)، مِنْ جِهَةِ المُصْطَلَحِ -عَلى أقَلِّ تَقْدير-.

(٢) (إنَّ) للرَّدِّ، وَنَقْلِ المَعْلومَةِ، وَتَقْديمِ الرَّأْيِ، وَالفَصْلِ المَوْضوعِيّ:

(إنَّ) للرَّدِّ

الرَّدُّ وَالجَوابُ يَنْطَوِيانِ عَلى الإخْبارِ، غَيْرَ أنَّهُما يَخْتَلِفانِ عَنِ الإخْبارِ مِنْ جِهَةِ أنَّهُما لا يَكونانِ إلا في سِياقِ الحِوارِ وَالحَديثِ المُتَبادَلِ بَيْنَ الأشْخاص، أمّا الإخْبار فَلا يُشْتَرَطُ لَهُ هذا. والرَّدُّ وَالجَوابُ نَفْساهُما بَيْنَهُما فَرْقٌ يَدِقُّ أحْياناً. فَإذا كانَ الجَوابُ مُسْتَلْزِماً سُؤالاً يَسْبِقُهُ، فَإنَّ الرَّدَّ يَتَطَلَّبُ أنْ يَكونَ مَسْبوقاً بِكَلامٍ لَيْسَ بِسُؤال، وَذلكَ كَأنْ يَطْلُبَ شَخْصٌ رَأْيَكَ في مَسْأَلَةٍ أوْ قَضِيَّة، فَإنَّهُ يَنْتَظِرُ مِنْكَ حينَئِذٍ رَدّاً عَلى ما طَلَبَهُ مِنْك. وَعَلى كُلِّ حال، يُرَدُّ الرَّدُّ وَالجَوابُ إلى الإخْبارِ بِسُهولَة، لأنَّكَ قَبْلَ أنْ تَرُدَّ أوْ تُجيبَ فَإنَّ ثَمَّةَ طَرَفاً آخَرَ مُقابِلاً لَكَ يَتَوَقَّعُ وَيَنْتَظِرُ مِنْكَ أنْ تُخْبِرَهُ بِرَدِّكَ أوْ إجابَتِك، فَتَأَمَّلْه.

وَفي المُسْتَطاعِ ضَرْبُ أمْثِلَةٍ عَلى هذَيْنِ كَثيرَةٍ: فَإبْليسُ الصّاغِرُ، بَعْدَ امْتِناعِهِ مِنَ السُّجودِ لآدَمَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- وَطَرْدِهِ مِنَ "الجَنَّة"، تَوَجَّهَ إلى الله -تَبارَكَ- بِطَلَبِ الإنْظار: ﴿قالَ أنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ﴾[٤]، وَمِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ تَكونَ حالُ إبْليسَ اللعينِ بَعْدَ طَلَبِهِ هذا حالَ مَنْ يَنْتَظِرُ الرَّدَّ وَيَتَوَقَّعُ الجَوابَ عَلى ما طَلَبَ، وَلأنَّهُ عَلى هذهِ الحالِ مِنَ الانْتِظارِ جاءَهُ الرَّدُّ مِنَ الحَقِّ مُصَدَّراً بِـ(إنَّ): ﴿قالَ: إنَّكَ مِنَ المُنْظَرين﴾[٥].

وَمِنْهُ كَلامُ رَبِّنا -عَزَّ اسْمُهُ- في سورَةِ الزُّخْرُف عَنْ مآلِ المُجْرِمينَ، وَذلكَ أنَّ المُجْرِمينَ الذينَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ العَذابُ نادَوْا مالِكاً -عَلَيْهِ السَّلامُ وَالرِّضْوان-، وَطَلَبوا مِنْهُ أنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُ: ﴿وَنادَوْا: يا مالِكُ، لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾[٦]. وَمَنْ طَلَبَ أنْ يُقْضى عَلَيْهِ لِيَسْتَريحَ مِنْ أهْوالِ العَذاب، لا جَرَمَ أنَّهُ مُنْتَظِرٌ بِفارِغِ الصَّبْرِ ما سَيَكونُ الرَّدُّ عَلى ما طَلَبوا، وَمِنْ هُنا جاءَهُمُ الخَبَرُ وَالرَّدُّ مُصَدَّراً بِـ(إنَّ): ﴿قالَ: إنَّكُمْ ماكِثون﴾[٧].

وَيَدْعَمُ هذا الطَّرْحَ كَذلكَ بِضْعُ آياتٍ في سورَةِ الأعْراف، عَنْ قِصَّةِ السَّحَرَةِ مَعَ فِرْعَوْن. فَبَعْدَ إيمانِ السَّحَرَةِ بِرَبِّ العالَمين، رَبِّ موسى وَهارون، أطْلَقَ فِرْعَوْنُ تَهْديداً شَديداً للسَّحَرَةِ، مَضْمونُهُ: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وَأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعين﴾. وَمِنَ المَقْطوعِ بِهِ أنَّ فِرْعَوْنَ بَعْدَ ذلكَ كانَ يَنْتَظِرُ رَدَّ السَّحَرَةِ عَلى تَهْديدِهِ بِتَقْطيعِهِمْ

(١) عُمَر يوسف عُكاشَة، **قَواعِدُ التَّغْيير عَنْ أوْجُهِ الزَّمَن الماضي في اللغَةِ العربيَّة**: ص١٣٧.

(٢) ابْنُ هِشام، **مُغْني اللبيب عَنْ كُتُبِ الأعاريب**: ص٢٣١ – ٢٣٢.

(٣) الكَفَوِيّ، **الكُلِّيّات**: مُعْجَم في المُصْطَلَحاتِ وَالفُروق اللغَويَّة: ص١٩٠.

(٤) **الأعراف** ٧ : ١٤.

(٥) **الأعراف** ٧ : ١٥.

(٦) **الزُّخْرُف** ٤٣ : ٧٧.

(٧) **الزُّخْرُف** ٤٣ : ٧٧.

وَصلْبِهِمْ، وَرُبَّما كانَ يَتَوَقَّعُ –مَثَلاً– رُجوعَهُمْ إلى مِلَّتِهِ الباطِلَةِ خَوْفاً. أقولُ: وَلأَنَّ هذِهِ كانَتْ هِيَ حالَـهُ، وَرَدَ عَلَيْـهِ جَوابُ السَّحَرَةِ وَرَدُّهُمْ بِـ(إنَّ): ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين (١٢٤) قالوا: إنّا إلى رَبِّنا مُنْقَلِبون (١٢٥)﴾[١].

وَإجْمالاً، لَسْتُ أرى –في الرَّأْيِ الذي أرى– أيَّ ذَرَّةٍ مِنْ مِثْقالِ غَرابَةٍ أوْ نَحْوِها، ذلكَ أنَّ ثَمَّةَ ما يُدْنيهِ إلى ما هُوَ مَوْجودٌ في التُّراثِ النَّحْويِّ وَاللغَويِّ. فَنَحْنُ واجِدونَ مِنَ العُلَماءِ مَنْ نَصَّ عَلى أنَّ (إنَّ) آتِيَةٌ –في أَحَدِ أوْجُهِها– بِمَعْنى (نَعَمْ)[٢]، وَما (نَعَمْ) إلا أداةُ جَوابٍ[٣].

(إنَّ) لِنَقْلِ المَعْلومَةِ الجَديدَة:

وَمِنْ أكْبَرِ الأدِلَّةِ التي لَحَظْتُها كَثْرَةُ دَوَرانِ (إنَّ) صَدْرَ الجُمَلِ التي تُقَدِّمُ مَعْلوماتٍ جَديدَةً لِلْمُتَلَقّي، خاصَّةً ما اشْتَمَلَ مِنْها عَلى حَقائِقَ عِلْمِيَّةٍ بَحْتَة، وَهِيَ كَثْرَةٌ كاثِرَةٌ، وَلِلنَّظَرِ لافِتَةٌ. وَمِنَ الأَمْثِلَةِ المَرْصودَةِ في هذا المَجالِ:

١. "**إنَّهُ** لَوْلا وُجودُ الحَرارَةِ الشَّديدَةِ في الصُّخورِ الباطِنِيَّةِ التي إذا وَصَلَ إلَيْها الماءُ بِالتَّسَرُّبِ أوْ مِنْ شُقوق، حَوَّلَتْـهُ هذِهِ الحَرارَةُ إلى بُخارٍ وَرَدَّتْهُ عَنْها فَرَجَعَ إلى حَيْثُ كان، لَضاعَ مُعْظَمُ أوْ جَميعُ ماءِ الأَرْضِ بِالتَّسَرُّبِ إلى باطِنِها بِمُضيِّ الزَّمَن، وَلَجَفَّ سَطْحُها مِنْهُ وَأَضْحى غَيْرَ صالِحٍ لِلْحَياة"[٤].

٢. "**إنَّ** الهَواءَ يَحْمِلُ مَقاديرَ وَفيرَةً مِنَ الماءِ عَلى هَيْئَةِ بُخارٍ، وَهذا البُخارُ هُوَ الذي يُكَوِّنُ السُّحُبَ وَيُعْطي المَطَرَ عِنْدَما تَنْدَفِعُ تَيّاراتُ الهَواءِ إلى أعْلى وَتَبْرُدُ تَحْتَ تَأْثيرِ الانْتِشارِ بِتَقْليلِ الضَّغْطِ الواقِعِ عَلَيْها بِالارْتِفاع"[٥].

٣. "**إنَّ** أَهَمَّ العَوامِلِ الطَّبيعِيَّةِ لِتَبْريدِ الهَواءِ الجَوِّيِّ هِيَ الرِّياحُ وَالجِبال"[٦].

٤. "**إنَّ** الجِبالَ كَما تَرْتَفِعُ في الجَوِّ تَغورُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ في القِشْرَةِ الأَرْضِيَّة"[٧].

٥. "**إنَّ** الكائِناتِ الحَيَّةَ يُمْكِنُ تَشْبيهُها بِدَوّامَةٍ مُسْتَمِرَّةِ الحَرَكَة، تَأْتي إلَيْها المادَّةُ الميتةُ مِنْ خارِجِها فَتَتَحَوَّلُ في داخِلِها إلى مادَّةٍ حَيَّةٍ، ثُمَّ تَموتُ تِلْكَ المادَّةُ الحَيَّةُ داخِلَها بَعْدَ اسْتِنْفادِ طاقَتِها، فَتَخْرُجُ مِنْها لِيَحِلَّ غَيْرُها مَحَلَّها"[٨].

٦. "**إنَّ** ذَرَّةَ الإدْروجين تَتَكَوَّنُ مِنْ نَواةٍ يَدورُ حَوْلَها كَهْرَبٌ واحِدٌ فَقَط (إلِكْترون)"[٩].

٧. "**إنَّ** الجِهازَ الهَضْمِيَّ يَقومُ بِهَضْمِ الغِذاءِ وَامْتِصاصِ الصّالِحِ مِنْهُ"[١٠].

٨. "**إنَّ** المُخَّ فيهِ مائَةُ أَلْفِ مِلْيونِ خَطٍّ عَصَبِيٍّ قادِمَةٍ إلَيْهِ مِنْ مُخْتَلِفِ أماكِنِ الجَسَد"[١١].

---

(١) **الأعْراف** ٧ : ١٢٤ – ١٢٥.

(٢) أُنْظُرْ: المَوْزِعِيّ، **مَصابيحُ المَعاني في حُروفِ المَعاني:** ص١٦١ – ١٦٣.

(٣) أُنْظُر **السّابق:** ص٤٩٢ – ٤٩٣.

(٤) نعمت صدقي، **مُعْجِزَةُ القُرْآن:** ص٤٢.

(٥) انظر **السّابق:** ص٤٦، نَقْلاً عَنْ: جمال الدّين الفندي، ولَمْ تُحَدِّدْ مِنْ أيِّ كِتابٍ نَقَلَت.

(٦) **السّابق نَفسه**، نَقْلاً عَنْ: حنفي أحمد، معجزة القرآن في وصف الكائنات.

(٧) **السّابق:** ص٥٦، نَقْلاً عَنْ: محمَّد مَحْمود إبراهيم، **إعجاز القرآن في عِلْمِ طَبَقاتِ الأَرْض.**

(٨) **السّابق نَفسه**، نَقْلاً عَنْ: أحْمَد مَحْمود سُلَيْمان، **القُرْآنُ وَالعِلْم.**

(٩) **السّابق:** ص٧٠، نَقْلاً عَنْ: أحْمَد مَحْمود سُلَيْمان، القُرْآنُ وَالعِلْم.

(١٠) **السّابق:** ص٧١، نَقْلاً عَنْ: أحمد كامِل الضَّو، القُرْآنُ الكَريمُ وَالعُلومُ الحَديثَة.

(١١) **السّابق:** ص١٥٨، نَقْلاً عَنْ: مُصْطَفى مَحْمود، لُغْزُ الحَياة.

٩. "إنَّ البصماتِ أدَلُّ على الإنْسانِ مِنْ وَجْهِهِ وَأدَلُّ مِنْ صورَتِهِ، وَهِيَ مِنْ أخَصِّ خَصائِصِهِ، وَجِلْد الإصْبَعِ لَو احتَرَقَ وَتَكَوَّنَ مَكانَهُ جِلْدٌ جَديدٌ ظَهَرَ الجِلْدُ الجَديدُ وَبِهِ الأشْكالُ نَفْسُها التي كانَتْ في جِلْدِهِ القَديم"(١).

(إنَّ) لِتَقْديمِ الرَّأْيِ:

وَغَيْرُ بَعيدٍ مِنْ ذلكَ أنْ تُساقَ (إنَّ) صَدْرَ الجُمْلَةِ التي يَعْرِضُ فيها الكاتِبُ أو المُؤَلِّفُ رَأياً رَآه أو اسْتَنْبَطَه أوْ تَوَصَّلَ إلَيْه. فَهذا -بِطَريقَةٍ أوْ بِأُخْرى- مِنْ قَبيلِ نَقْلِ الرَّأْيِ أوِ الإخْبارِ بِه. وَمِنْهُ أنْ يَقولَ كاتِبٌ مُسْتَنْبِطاً:

١. "إنَّ اللهَ -سُبْحانَهُ- لَخَّصَ تاريخَ حَياةِ النَّحْلِ في العالَمِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ حَتّى الآن، وَإلى أنْ تَقومَ السّاعَةُ، في كَلِماتٍ مَعْدودات، وَنَبَّهَ العَقْلَ البَشَرِيَّ إلى أنَّ النَّحْلَ قَدِ اتَّخَذَ، أوَّلَ ما اتَّخَذَ، بُيوتَهُ مِنَ الجِبال، ثُمَّ انْحَدَرَ مِنْها إلى الأشْجار،..."(٢).

٢. "إنَّ النَّتيجَةَ المَنْطِقِيَّةَ الحَتْمِيَّةَ التي يَفْرِضُها عَلَيْنا العَقْلُ لَيْسَتْ مَقْصورَةً على أنَّ لِهذا الكَوْنِ خالِقاً فَحَسْب، بَلْ لا بُدَّ أنْ يَكونَ هذا الخالِقُ حَكيماً عَليماً قَديراً على كُلِّ شَيْءٍ،..."(٣).

٣. "إنَّ البَراهينَ التي جاءَ بِها القُرْآنُ الكَريمُ وَخَصَّصَها بِالتَّوْكيدِ وَالتَّقْرير، هِيَ أقْوى البَراهينِ إقْناعاً، وَأخْراها أنْ تُبْطِلَ القَوْلَ بِقِيامِ الكَوْنِ على المادَّةِ العَمْياء دونَ غَيْرِها"(٤).

٤. "إنّي أرى أنَّ أعْظَمَ بُرْهانٍ على وُجودِ اللهِ -تَعالى- هُوَ وُجودُ الإنْسان"(٥).

(إنَّ) لِلْفَصْلِ المَوْضوعِيّ:

أحْسَبُ أنَّ رَأْيَنا في هذا البَحْثِ -حَوْلَ (إنَّ)- مُؤَيَّدٌ بِما لَحَظْناهُ أيْضاً مِنْ أنَّ (إنَّ) تَرِدُ أحْياناً بِدايَةَ المَوْضوعِ الجَديد، أوْ -بِعِبارَةٍ أدَقَّ- صَدْرَ الجُمْلَةِ التي تَكونُ بِدايَةً لِمَوْضوعٍ جَديد، فَتَظْهَرُ كَأنَّها تَفْصِلُ مَوْضوعاً لاحِقاً عَنْ آخَرَ سابِق، وَما كِلا المَوْضوعَيْنِ إلا بِمَثابَةِ خَبَرٍ جَديدٍ أوْ مَعْلومَةٍ جَديدَةٍ لِمُتَلَقّي النَّصّ. اِقْرَأْ قَوْلَ -مَوْلانا-: ﴿إنَّ الذينَ فَتَنوا المُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتوبوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الحَريق. إنَّ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ذلكَ الفَوْزُ الكَبير﴾(٦).

وَهاهِيَ تَفْصِلُ مَوْضوعَ الجَنَّةِ وَالحَديثِ عَنْ نَعيمِها، عَنِ النّارِ وَعَذابِها في آياتِ الزُّخْرُف (٦٨ – ٧٦)، وَذلكَ بِتَوَسُّطِها المَوْضوعَيْنِ بِوَصْفِها فاصِلاً يَفْصِلُ المَوْضوعَ الأوَّلَ عَنِ الثّاني وَيُمَهِّدُ -مِنْ ثَمَّ- لِلثّاني: ﴿ياعِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أنْتُمْ تَحْزَنون (٦٨) الذينَ آمَنوا بِآيَتِنا وَكانوا مُسْلِمين (٦٩) اُدْخُلوا الجَنَّةَ أنْتُمْ وَأزْواجُكُمْ تُحْبَرون (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأكْوابٍ وَفيها ما تَشْتَهيهِ الأنْفُسُ وَتَلَذُّ الأعْيُنُ وَأنْتُمْ فيها خالِدون (٧١) وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أورِثْتُموها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلون (٧٢) لَكُمْ فيها فاكِهَةٌ كَثيرَةٌ مِنْها تَأكُلون (٧٣) إنَّ المُجْرِمينَ في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدون (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فيهِ مُبْلِسون (٧٥) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانوا هُمُ الظّالِمين (٧٦)﴾ (٧).

---

(١) **السّابق:** ص١٦٢.

(٢) **السّابق:** ص٧٢، نَقْلاً عَنْ: أحمد كامِل الضَّو، القُرْآنُ الكَريمُ وَالعُلومُ الحَديثَة.

(٣) **السّابق:** ص٨٦، نَقْلاً عَنْ: جمال الدّين الفندي، ولَمْ تُحَدِّدْ مِنْ أيِّ كِتابٍ نَقَلَت.

(٤) **السّابق:** ص٨٧ – ٨٨.

(٥) **السّابق:** ص٨٨.

(٦) **البُروج** ٨٥ : ١٠ – ١١.

(٧) **الزُّخْرُف** ٤٣ : ٦٨ – ٧٦.

وَهذا لا يَخْرُجُ بِأيِّ مِقْدارٍ عَنْ مِظَلَّةِ التَّفْسيرِ الأَشْمَلِ الذي نَزْعُمُهُ، وَهُوَ أَنَّ (إنَّ) لِلإِخْبارِ أَوِ انْتِظارِ الخَبَرِ. إذ أَسْتَحِبُّ تَفْسيرَ هذا عَلى النَّحْوِ: لا شَكَّ أَنَّ سَماعَ ما سَيَحِلُّ بِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ يَوْمَ القِيامَةِ، دافِعٌ الطَّرَفَ الآخَرَ إِلى انْتِظارِ سَماعِ ما سَيَؤولُ إِلَيْهِ مَصيرُهُمْ في ذلكَ اليَوْم.

وَفي مُحاوَرَةِ الحَقِّ –سُبْحانَهُ– لإِبْليسَ الرَّجيم، نَعْثُرُ عَلى (إنَّ) مُتَصَرِّفَةً بِوَصْفِها مِفْصَلاً يَفْصِلُ المَوْضوعَ الأَوَّلَ عَنِ المَوْضوعِ الثّاني عَنِ المَوْضوعِ الثّالِثِ. فَالحَقُّ –تَبارَكَ– يُخْبِرُ إِبْليسَ بِأَنَّ عِبادَ اللهِ لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ أَيُّ سُلْطانٍ في الدُّنْيا، فَهذا هُوَ المَوْضوعُ الأَوَّلُ وَقَدْ بُدِئَ بِـ(إنَّ). وَأَمّا المَوْضوعُ الثّاني، الذي هُوَ المَآلُ الذي سَيَصيرُ إِلَيْهِ إِبْليسُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الغاوين يَوْمَ القِيامَةِ، فَقَدِ ابْتُدِئَ هُوَ الآخَرُ بِـ(إنَّ). وَلْنَلْحَظ أَنَّ اللهَ –جَلَّ– قَدْ خَصَّصَ لِجَهَنَّمَ –في المَوْضوعِ الثّاني– آيَتَيْنِ جاءَتْ (إنَّ) في أُولاهُما –حَسْبُ–، لأَنَّ الآيَةَ الثّانِيَةَ لَيْسَتْ تُمَثِّلُ مَوْضوعاً جَديداً.

وَنَجِدُ المَوْلى عِنْدَما يَنْتَقِلُ إِلى المَوْضوعِ الثّالِثِ، أَي الكَلامِ عَلى مَصيرِ عِبادِهِ المُتَّقين، يَسْتَخْدِمُ (إنَّ) –تَنْزيهَ اسْمُهُ–. اِقْرَأْ: ﴿قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقيمٌ (٤١) إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوين (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعينَ (٤٣) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسومٌ (٤٤) إِنَّ المُتَّقينَ في جَنّاتٍ وَعُيون (٤٥) اُدْخُلوها بِسَلامٍ آمِنينَ﴾.

وَفي سورَةِ القَصَصِ نَقْرَأُ الآيَتَيْنِ (٧٤–٧٥) اللتَيْنِ تَتَكَلَّمانِ عَلى أَحَدِ مَشاهِدِ الآخِرَةِ: ﴿وَيَوْمَ يُناديهِمْ فَيَقولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الذينَ كُنْتُمْ تَزْعُمونَ (٧٤) وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً فَقُلْنا هاتوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِموا أَنَّ الحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرون (٧٥)﴾[1]. ثُمَّ يَنْتَقِلُ مَوْلانا –عَزَّ– مُباشَرَةً إِلى مَوْضوعٍ آخَرَ، هُوَ قِصَّةُ "قارون"، هكَذا: ﴿إِنَّ قارونَ كانَ مِنْ قَوْمِ موسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الكُنوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحين﴾[2].

وَمِثْلُهُ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكينَ (٦) الذينَ لا يُؤْتونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرون (٧) إِنَّ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنون (٨)﴾[3].

(٣) (إنَّ) أَداةُ رَبْطٍ:

تَنْمازُ (إنَّ) المَقْصودَةُ هُنا مِنْ غَيْرِها مِنْ جِهَةِ أَنَّها تُؤَدّي وَظيفَةً تَرْكيبِيَّةً مُتَمَثِّلَةً في الرَّبْطِ بَيْنَ إِسْنادَيْن، بِالإِضافَةِ إِلى إِبْرازِها المُسْنَدَ إِلَيْهِ الذي يَعْقِبُها، وَدَوْرِها في الإِخْبار. وَ(إنَّ) التي هذِهِ صِفَتُها عَلى نَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، اعْتِماداً عَلى نَوْعِ الرَّبْطِ الذي تَنْهَضُ به، كَما يَسْتَبينُ تالِياً.

أَداةُ رَبْطٍ إِدْماجِيٌّ لِنَقْلِ الكَلامِ، أَوْ هِيَ أَداةُ اتِّكاءٍ مَقولِيٍّ:

أَظُنُّ أَنَّ مِنْ أَدَلِّ الأَدِلَّةِ على كونِ (إنَّ) للإِخبارِ، أو إِرسالِ الخبرِ اللغويِّ، أَنَّها كثيراً ما تَلي فِعْلَ القَوْلِ (قالَ) أَوْ ما يَتَصَرَّفُ مِنْه، وَتَتَصَدَّرُ جُمْلَةَ المَقولِ المَنْقول، أَو الجُمْلَةَ المُسَمّاةَ بِمَقولِ القَوْل: (قالَ إِنَّه...، قالَ: إِنَّني...). وَتَفْسيرُ إِيرادِ (إنَّ) ههُنا أَنَّ المتلقِّيَ ما إِنْ يَسْمَعْ –مَثَلاً–: (قالَ الوَزيرُ...)، حَتّى يُهَيِّئَ نَفْسَهُ وَيَتَحَفَّزَ لِسَماعِ مَقولِ القَوْلِ، مُنْتَظِراً أَنْ يَأْتِيَ القائلُ أَوِ النّاقِلُ، بِكلامِ الوَزير. ولأَنَّ الأَمرَ عَلى هذا النَّحْوِ مِنَ الانْتِظار، فإِنَّ القائلَ أَو النّاقلَ يقومُ بالاتِّكاء على (إنَّ) لإِيصالِ النَّصِّ الذي يُريدُ إِيصالَهُ.

---

(١) **القَصَص** ٢٨ : ٧٤ – ٧٥.

(٢) **القَصَص** ٢٨ : ٧٦.

(٣) **فُصِّلَتْ** ٤١ : ٦ – ٨.

وَإذا كانَ صَحيحاً أنَّ (إنَّ) يُؤْتى بها في اللغةِ لغرضِ إرسالِ خبرٍ، كَما أسْلَفْنا القَوْلَ مِراراً، فَإنَّ اجْتِلابَها بعْدَ فِعْلِ القَوْلِ وَأوَّلَ المَقول لا يَتَخَلَّفُ عَنْ هذا. فالمَرْءُ حينَ يَنْقُلُ عَنْ غَيْرِهِ كَلاماً بِلَفْظِهِ (أيْ يَنْقُلُهُ نَقْلاً مُباشَراً)، أوْ مُحَوِّلاً عَنْ وِجْهَتِه (أيْ يَنْقُلُهُ نَقْلاً غَيْرَ مُباشَر)، فَإنَّما يَرْمي إلى أنْ يوصِلَ خبراً لمتلقٍّ ينتظرُ الخبرَ. ولكنَّ اجْتِلابَ (إنَّ) في هذا المَوْضعِ مِنَ الكَلام، لا يكونُ إلا مِنْ قَبيلِ الحُرِّيَّةِ وَالاخْتِيار، لا مِنْ سَبيلِ الإجْبارِ وَالاضطرار.

أعْني أنَّ الإتْيانَ بـــ(إنَّ) بَعْدَ فِعْلِ القَوْلِ وَأوَّلَ المَقولِ قاعِدَةٌ اخْتِياريَّة فـــي العَرَبِيَّـــة، وَلا يُمَثِّـــلُ الأصْـــلَ التّاريخِيّ. الأصْلُ –في تَصَوُّري– أنْ يُؤْتى بالمَقولِ المَنْقولِ حِكايَةً دونَ واسِطَةٍ مِنْ (إنَّ)، وَهُوَ في العَرَبِيَّـــةِ كَثيـــر، وَعَلَيْهِ ما نَعْرِفُ مِنْ لُغات. وَمَجيءُ المَقولِ المَنْقول دونَ أنْ تَتَصَدَّرَهُ (إنَّ)، لا يَحْتاجُ إلـــى تَفْـــسيرٍ أوْ تَعْليـــل، بَـــلِ اجْتِلابُ (إنَّ) هُوَ المُفْتَقِرُ إلى التَّفْسيرِ وَالتَّعْليلِ حَسْب. فَلَكَ أنْ تَقول: (قالَ زَيْدٌ: أنا خَيْرٌ مِنْ عَمْرو)، أوْ: (قالَ زَيْـــدٌ: إنَّني خَيْرٌ مِنْ عَمْرو).

وَأسْتَحِبُّ النَّظَرَ إلى (إنَّ) الواقِعَةِ غِبَّ القَوْلِ –مِنْ ناحِيَةٍ ثانِيَة– بِوَصْفِها أداةً لِنَقْلِ الكَلامِ، أوْ عُنْصُرَ اتِّكـــاءٍ مَقوليّاً، سواء كانَ المَقولُ مَحْكِيّاً حِكايَةً (مَنْقولاً بِلَفْظِهِ وَمَعْناه)، أوْ مُخْبَراً إخْباراً (مَنْقولاً بالمَعْنى دونَ اللفْظ). أعْنـــي بذا أنَّها أداةٌ يَلْجَأُ النّاطِقُ اللغَويُّ إلَيْها وَيَتَوَكَّأُ عَلَيْها بُغْيَةَ نَقْلِ الكَلام. ولَكِنَّ الأصْلَ في نَقْلِ (إنَّ) الكَلامَ –كَما ثَبَتَ لـــي في بَحْثٍ آخَرَ مَنْشور– أنْ تَأْتِيَ لِنَقْلِ الكَلامِ بِنَصِّهِ، أيْ بِلَفْظِهِ وَمَعْناهُ، وَهُوَ الأمْرُ المُدَلَّلُ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الكَثْرَةِ الوافِرَةِ مِنَ النُّصوصِ العَمَليَّةِ التي تَرْتَدُّ إلى العَرَبِيَّةِ الكلاسيكِيَّة، حَيْثُ لا تَرِدُ (إنَّ) إلا بادِهَةَ الكَلامَ المَحْكِيِّ حِكايَةً بِالْتِزامِ أَلْفـــاظِ المَنْقولِ عَنْهُ، عَلى وِفاقِ الآيَةِ: ﴿قالَ: إنِّي عَبْدُ اللهِ﴾[1]. وَأنْ تُخَصِّصَ العَرَبِيَّةُ أداةً لِنَقْلِ الكَلامِ بِنَصِّهِ، أمْرٌ لَمْ يَثْبُـــتْ وُجودُهُ في سِوى العَرَبِيَّةِ مِن اللغات.

وَيَنْبَني تلقائِيّاً عَلى هذا، أنْ تَقومَ (إنَّ) بِدَوْرٍ تَرْكيبِيٍّ تَسْتَبينُ مَعَهُ حُدودُ الكَلامِ. فَهِيَ تَعْمَـــلُ –مِـــنَ النّاحِيَـــةِ التَّرْكيبِيَّةِ– عَلى إدْماجِ تَرْكيبٍ أصْغَرَ في تَرْكيبٍ أكْبَرَ، مِمّا يَعْني أنَّها تَتَوَسَّطُ ما بَيْنَ الجُمْلَةِ المُدْمِجَةِ أوْ المُخْضِعَةِ أوْ المُحْتَضِنَةِ، وَالجُمْلَةِ المُدْمَجَةِ أوْ المُخْضَعَةِ أو المُحْتَضَنَة. أوْ قُلْ: إنَّها تَقومُ بِإدْماجِ الإسْنادِ الذي يَتْبَعُها فـــي الإسْـــنادِ الذي يَسْبِقُها، لِيَغْدُوَ الإسْنادُ الثّاني تابِعاً وَالأوَّلُ مَتْبوعاً، أوْ يُصْبِحَ الإسْنادُ التّابِعُ أحَدَ مُكَوِّناتِ الإسْنادِ المَتْبوع أوْ أحَـــدَ عَناصِرِه، كَقَوْلِك: (قُلْتُ: إنَّني مُسافِرٌ إلى دِمَشْق). وَإذَنْ، تَحْتَشِدُ الوَظائِفُ التّالِيَةُ لِـــ(إنَّ) في هذِهِ الحال: (١) نَـــصْب المُسْنَدِ إلَيْهِ بُغْيَةَ إبْرازِه عَلى ما ذَكَرْناهُ ماضِياً، وَ(٣) رَبْطُ الإسْنادَيْنِ رَبْطاً إدْماجِيّاً، وَ(٤) تَبْيـــينُ حُـــدودِ الـــرَّبْطِ أوِ الإدْماج، وَ(٥) نَقْلُ الكَلامِ أوِ الإخْبار.

وَقَدْ اطْمَأنَّتِ النَّفْسُ كَثيراً، حِيالَ التَّفْسيرِ المَسوقِ هُنا، وَالتَّوْجيهِ المُقَدَّمِ بِشَأْنِ وَظيفَةِ (إنَّ) الحَقيقِيَّةِ في مُرْتَأى البَحْث، حينَما تَبَيَّنَ لي أمْرٌ واقِعٌ في الكِتابِ العَزيزِ –وَفي غَيْرِهِ مِنْ نُصوصِ العَرَبِيَّةِ بِطَبيعَةِ الحال–، يَخْدِمُ كَثيراً ما نَحْنُ بِإزاءِ إثْباتِهِ. فَقَدِ انْقَدَحَ في الذِّهْنِ بِأنَّهُ إذا كانَ مِنَ الصَّحيحِ أنَّ لِـــ(إنَّ) نَظائِرَ في أخَواتِ العَرَبِيَّةِ مِـــنَ اللغـــاتِ الجَزْرِيَّة، غَيْرَ أنَّها لَيْسَتْ تَعْني التَّوْكيدَ بِحال، فَإنَّ (إنَّ) التي تَأْتي في العَرَبِيَّةِ لِنَقْلِ الكَلامِ نَقْلاً حِكائِيّاً (أيْ مُباشَراً أوْ حَرْفِيّاً مَنْقولاً بِلَفْظِهِ وَمَعْناهُ) –وَهُوَ الأصْلُ الذي عَلَيْهِ العَرَبِيَّةُ الكلاسيكِيَّةُ–، مَزِيَّةٌ تَنْمازُ بِها العَرَبِيَّـــةُ –فـــي حُـــدودِ عِلْمي– ، لَيْسَ لَها مَثيلٌ في أيِّ لُغَةٍ أُخْرى، مُنْدَثِرَةٍ أوْ حَيَّة، سَواء أكانَتْ أُخْتاً لِلْعَرَبِيَّةِ مِنَ اللغاتِ الجزريَّة أمْ لَمْ تَكُنْ.

وَلِذا، فَإنَّنا إذا وَجَدْنا نَصّاً مُتَرْجَماً إلى العَرَبِيَّةِ، يَحْوي فِعْلَ القَوْلِ الرَّئيسَ: (قالَ)، وكـــانَ الكَـــلامُ المَقـــولُ المَنْقولُ بَعْدَ (قالَ) كَلاماً بِالنَّصِّ، وكانَ مُصَدَّراً بِـــ(إنَّ)، فَإنَّ (إنَّ) في هذِهِ الحال لا جَرَمَ هِيَ مِنَ اللغَةِ العَرَبِيَّةِ، مِـــنْ

(١) مَرْيَم ١٩ : ٣٠.

وَضْعِ المُتَرْجِمِ العَرَبِيِّ أَوِ النّاقِلِ مِنَ اللغَةِ الأُخْرى إِلى اللغَةِ العَرَبِيَّة. وَعَلَيْهِ يَسْهُلُ القَوْل: إِنَّ (إِنَّ) في قَوْلِ مَوْلانا –تَبارَكَ–: ﴿قالَ: إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾، إِنَّما هِيَ في قَناعَةِ الباحِثِ الحالِيِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّ العالَمينَ –عَزَّ رَبّاً مَعْبوداً، وَجَلَّ إِلهاً مَقْصوداً–، وَلَمْ يَنْطِقْ بِها السَّيِّدُ المَسيحُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَسَواء كانَ عيسى قَدْ قالَ قَوْلَتَهُ هذِهِ بِلُغَتِهِ وَلُغَةِ قَوْمِهِ أَي العِبْرِيَّة، أَوْ بِاللغَةِ الآرامِيَّةِ التي قيلَ إِنَّهُ بَشَّرَ بِها[1]، فَإِنَّ الأَداةَ (إِنَّ) في الآيَةِ العَزيزَةِ تَظَلُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ –جَلَّ جَلالُه– تَناسُباً مَعَ اللغَةِ المُتَرْجَمِ إِلَيْها كَلامُ السَّيِّدِ المَسيحِ، وَهِيَ العَرَبِيَّة. لأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ مُقابِلٌ لِـ(إِنَّ) التي تَنْقُلُ الكَلامَ نَقْلاً مُباشِراً، في كِلْتا اللغَتَيْنِ: العِبْرِيَّةِ وَالآرامِيَّة. بِمَعْنى أَنَّ كِلْتا اللغَتَيْنِ لا تَضَعُ أَداةً خاصَّةً تَأْتي بِها قَبْلَ الكَلامِ المَنْقولِ بِنَصِّهِ لَفْظاً وَمَعْنى.

(إِنَّ) أَداةُ رَبْطٍ لِلتَّعْليلِ السَّبَبِيّ[2]:

يُمْكِنُ أَنْ تُرَدَّ دِلالَةُ (إِنَّ) عَلى السَّبَبِ –بِكُلِّ يُسْرٍ– إِلى الدّلالَةِ عَلى الخَبَرِ وَالجَواب. ذلِكَ أَنَّكَ حينَما تَعْمَدُ إِلى تَوْجيهِ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ إِلى شَخْصٍ ما، فَلا جَرَمَ أَنَّ في أَمْرِكَ هذا أَوْ نَهْيِكَ مَدْعاةً لِلشَّخْصِ المَأْمورِ أَوْ المَنْهِيِّ إِلى أَنْ يُنْشِئَ في نَفْسِهِ سُؤالاً أَوْ تَساؤُلاً مَشْروعاً جِدّاً عَنِ السَّبَبِ الذي اضطَرَّكَ إِلى أَنْ تُوَجِّهَ لَهُ ذلِكَ الأَمْرَ أَوِ النَّهْي. وَهذا يَعْني أَنَّهُ يَنْتَظِرُ مِنْكَ أَنْ تُفْصِحَ عَنْ ذلِكَ السَّبَب، فَإِذا قُلْتَ –مَثَلاً– لِصَديقِكَ عَمّار: "لا تُصاحِبْ كَمالاً"، فَإِنَّهُ بِمُجَرَّدِ انْتِهائِكَ مِنْ إِنْشاءِ هذِهِ الجُمْلَةِ، يَكونُ السَّبَبُ الذي يَقِفُ خَلْفَ النَّهْيِ عَنْ مُصاحَبَةِ كَمالٍ جائِلاً في خاطِرِ عَمّار. فَهُوَ يَنْتَظِرُ أَنْ تُفْصِحَ عَنْ السَّبَب. فَإِذا ما أَكْمَلْتَ بِقَوْلِكَ –مَثَلاً–: (لا تُصاحِبْ كَمالاً. إِنَّهُ سَيِّئُ الخُلُق)، هَدَأَ خاطِرُهُ.

فَلا أَشُكُّ في أَنَّ جُمْلَةَ "إِنَّ اللهَ مَعَنا"، مِنْ قَوْلِ رَبِّنا –عَزَّتْ أَسْماؤُهُ–: "لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا"، إِنَّما تَنْهَضُ بِالدَّوْرِ الدِّلالِيِّ "التَّعْليل". فَالرَّسولُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَنْهى الصِّدّيقَ أَبا بَكْرٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– عَنِ الحُزْنِ، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ بِأَلا يَحْزَنَ، وَسَبَبُ هذا النَّهْيِ أَوِ الطَّلَبِ بِعَدَمِ الحُزْنِ أَنَّ اللهَ –جَلَّ– في مَعِيَّتِهِما. بِطَريقَةٍ ثانِيَةٍ: إِنَّ عَدَمَ الحُزْنِ مُسَبَّبٌ مِنْ مَعِيَّةِ اللهِ، أَوْ إِنَّ مَعِيَّةَ اللهِ سَبَبٌ في عَدَمِ الحُزْنِ. وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يُقالُ في (إِنَّ) الوارِدَةِ تالِيَةً الأَمْرَ، مِثْل: "ذُقْ إِنَّكَ...".

وَعَلى ما سَبَقَ نُؤَسِّسُ لِلْقَوْل: إِنَّ السّامِعَ –أَوِ القارِئَ– حينَما يَطْرُقُ سَمْعَهُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ، فَإِنَّ أَوَّلَ ما قَدْ يَتَبادَرُ إِلى خاطِرِ المَأْمورِ أَوِ المَنْهِيِّ السُّؤالُ أَوِ التَّساؤُلُ عَنْ سَبَبِ الأَمْرِ أَو النَّهْيِ المُوَجَّه. إِذَنْ، فَالآمِرُ أَوِ النّاهي يُدْرِكُ أَنَّ الشَّخْصَ الذي يَأْمُرُهُ أَوْ يَنْهاهُ يَنْتَظِرُ مِنْهُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ وَيُفْصِحَ عَنْ سَبَبِ ما وَجَّهَ لَهُ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ. وَلأَنَّ الأَمْرَ كذلِكَ، أَيْ: لأَنَّ الأَمْرَ مُنْطَوٍ عَلى انْتِظارٍ، فَإِنَّ الآمِرَ أَوِ النّاهِيَ يَأْتي بِالجُمْلَةِ السَّبَبِيَّةِ التّالِيَةِ لِلأَمْرِ أَوِ النَّهْيِ مُصَدَّرَةً بِـ(إِنَّ). هذا يَعْني أَنَّ الآمِرَ أَوِ النّاهِيَ يُصَدِّرُ السَّبَبَ الذي يَنْتَظِرُهُ الآخَرُ بِـ(إِنَّ):[3]

– ﴿قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ العَليمُ الحَكيم﴾[4] (المَعْنى: لا عِلْمَ لَنا إِلا ما عَلَّمْتَنا لأَنَّكَ أَنْتَ العَليمُ الحَكيم).

---

(١) يَرى بَعْضُ الباحِثينَ أَنَّ اللغَةَ الآرامِيَّةَ كانَتْ قَبْلَ الميلادِ كَاللغَةِ الإِنْجليزِيَّةِ اليَوْمَ مِنْ حَيْثُ الانْتِشار، وإِنْ هِيَ إِلا مَرْحَلَةٌ وَجيزَةٌ حَتّى أَصْبَحَتْ لُغَةَ الحَضارَةِ وَالشَّعْبِ في بِلادِ الشّام، "حَتّى السَّيِّد المَسيح بَشَّرَ بِها، وَلَمْ يُبَشِّرْ بِالعِبْرِيَّةِ لُغَتِهِ وَلُغَةِ قَوْمِه" (محمّد التّونجي، **عبقريّة العرب في لُغَتِهم الجَميلَة**: ص٣٢).

(٢) التَّعْليلُ تَعْليلان : سَبَبِيّ، وَغَرَضِيّ. انظر: عمر عكاشة، **النَّحْوُ الغائِب**: دَعْوَةٌ إِلى تَوْصيفٍ جَديدٍ لِنَحْوِ اللغَةِ العَرَبِيَّةِ في مقتضى تَعْليمِها لِغَيْرِ النّاطِقينَ بِها: ص٣٠٩ – ٣٣٨.

(٣) قَدْ نَجِدُ شواهد تحتوي على (إِنَّ) التعليليَّةِ من غير أَنْ يسبقها إنشاء، وَلا فَرْق، كقوله: ﴿**إِنّا كنا نَدعوهُ من قبلُ. إِنه هو** البَرُّ الرحيمُ﴾ (**الطّور** ٥٢ : ٢٨)، و: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والذينَ مِنْ قَبلِهِم. **أَهْلَكناهُم. إِنَّهُم** كانوا قوماً مُجرِمين﴾ (الدُّخان ٤٤ : ٣٧).

(٤) **البَقَرَة** ٢ : ٣٢.

- ﴿قالَ: فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجيمٌ﴾[١] (المَعْنى: اخْرُجْ، لأَنَّكَ رَجيم).
- ﴿وقالوا: لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ﴾[٢] (المَعْنى: لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ، لأَنّا مُنَجّوكَ وَأَهْلَكَ...).
- ﴿وَلا تُخاطِبْني في الذينَ ظَلَموا إِنَّهُمْ مُغْرَقون﴾[٣] (المَعْنى: لا تُخاطِبْني في الذينَ ظَلَموا، لأَنَّهُمْ مُغْرَقون).
- ﴿وَلا تُسْرِفوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفين﴾[٤] (المَعْنى: وَلا تُسْرِفوا، لأَنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفين).
- ﴿فَاخْرُجْ. إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرين﴾[٥] (المَعْنى: فَاخْرُجْ، لأَنَّكَ مِنَ الصّاغِرين).
- ﴿فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يُؤْمِنونَ﴾[٦] (المَعْنى: فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ لأَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ).

(١) الحِجْر ١٥ : ٣٤.
(٢) العَنْكَبوت ٢٩ : ٣٣.
(٣) المُؤْمِنون ٢٣ : ٢٧.
(٤) الأَعْراف ٧ : ٣١.
(٥) الأَعْراف ٧ : ١٣.
(٦) هود ١١ : ١٧.